تحت الرعاية السامية لصاحب الجلالة الملك محمد السادس

معرض الفرس
للجديدة

من 21 إلى 26 أكتوبر 2009 الدورة الثانية

أعمال اليوم الدراسي

الذي نظمته
جمعية معرض الفرس

يوم الجمعة 23 أكتوبر 2009

في موضوع :
الفرس في الفضاء العربي الإسلامي

تحت الرعاية السامية لصاحب الجلالة الملك محمد السادس

الدورة الثانية لمعرض الفرس للجديدة

أعمال اليوم الدراسي

الذي نظمته
جمعية معرض الفرس

في موضوع :

الفرس في الفضاء العربي الإسلامي

يوم الجمعة 23 أكتوبر 2009

قاعة المحاضرات
معرض الفرس للجديدة

الرئيس الشرفي

صاحب السمو الأمير مولاي عبد الله العلوي

اللجنة المنظمة

د. عبد الحق التبر
د. الحبيب مرزاق
د. محمد الكوهن
د. حميد بنعزو
ذ. السعيد خويَ

اللجنة العلمية

ذ. محمد الفـران
ذ. مصطفى الشابي
ذ. أحمد شوقي بنبين
د. الحبيب مرزاق

بسم الله الرحمن الرحيم

الفـرس فـي الفـضاء العـربي الإسـلامي

محفوظة جميع الحقوق
©Copyright

الكتاب : الفـرس فـي الفـضاء العـربي الإسـلامي
الناشر : جمعية معرض الفرس
صورة الغلاف : Gabrielle Boiselle
الطبعة : 2017
الايداع القانوني : 2017MO2596
ردمك : 978-9954-9576-8-4
الطبع : دار أبي رقراق للطباعة والنشر
10 شارع العلويين رقم *3*، حسان – الرباط
الهاتف : *05 37 20 75 83* – الفاكس : *05 37 20 75 89*
E-mail : editionsbouregreg2015@gmail.com

فـهـرس

«قراءة في كتاب مخطوط بعنوان حسن المسامرة بالليل الجامعة لأحاديث الخيل لمؤلفه محمد الزكي بن محمد الهاشمي بن محمد الكبير العلوي »
ذ. أحمد شوقي بنبين 9

« الفرس والفروسية في الثقافة العربية الإسلامية»
ذ. محمد الفـران 16

«الفرس في الحضارات القديمة»
ذ. أحمد شحلان 28

«الفرس واستعمالاته الحربية في مغرب القرن التاسع عشر
ذ. مصطفى الشابي 45

«الفرس في المخيل الشعبي»
ذ. أحمد البوزيدي 64

«دراسة لما وصل إلينا من تراث الخيل»
ذ. محمد عزير شمس 73

«قراءة في أرجوزة تميمة الأجياد في الصافنات النجباء الجياد لعبد القادر القادري»
ذ. محمد سعيد حنشي 82

«الشيم العالية للفرس والفارس عند العرب»
ذ. مولاي سلامة العلوي 97

قراءة في كتاب مخطوط عن الخيل بعنوان «حسن المسامرة بالليل الجامعة لأحاديث الخيل»[1] لمؤلفه محمد الزكي بن محمد الهاشمي بن محمد الكبير الحسني العلوي المتوفى في عام 1271م.

ذ. أحمد شوقي بنبين(*)

اهتمام العرب بالفرس اهتمام خاص، وعنايتهم بالخيل عناية استمدت أصولها ومقوماتها من عناية الباري تعالى بها، بحيث إنه خلقها قبل خلق آدم عليه السلام، يقول السبكي: خلق الخيل كان قبل خلق آدم بيوم أو يومين، وخلق الذكر قبل الأنثى، والعربي قبل البرذون[2]، وجاء في كتاب «حسن المسامرة» فلما عرض الله على آدم من كل شيء قال له اختر من خلقي ما شئت، فاختار الفرس فقال له الله تعالى: اخترت عزك وعز ولدك خالدا ما خلدوا، وباقيا ما بقوا، بركتي عليك وعليهم، ما خلقت أحبّ إلي منك ومنهم.

وذكر ابن الكلبي في أنساب الخيل «كانت العرب ترتبط الخيل في الجاهلية لحبها لها ومعرفة فضلها حتى بعث الله نبيه عليه السلام فأمره باتخاذها وارتباطها فقال: ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾[3] فاتخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الخيل وارتبطها وأعجب بها وحض عليها. وجاء في صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود قال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلوي ناصية فرسه بأصبعه وهو يقول: «**الخيل معقود في نواصيها[4] الخير إلى يوم القيامة وأهلها معانون عليها. فامسحوا نواصيها وادعوا لها بالبركة، وفي رواية أخرى: والمنفق عليها كالباسط يده بالصدقة**».

وقد رويت عن الرسول (ص) عدة أحاديث تظهر فضل الخيل بعضها جعل أجر المرتبط لها والمعتني بها أجر الصائم والشهيد. ومن أجل هذه العناية الربانية والاهتمام النبوي الشريف بالخيل فقد تردد ذكرها في أشعار العرب وأخبارهم وأمثالهم فعنوا بها ووضعوا فيها المؤلفات منذ بداية التأليف إلى العصر الحاضر بدءا «بأنساب الخيل» لابن الكلبي 204هـ مرورا بمؤلفات أبي عبيدة معمر بن المثنى 209 والأصمعي 216هـ وابن الأعرابي 231هـ والغندجاني 5هـ

(*)- ذ. أحمد شوقي بنبين : محافظ الخزانة الحسنية - الرباط

1- محفوظ ضمن مخطوطات الخزانة الحسنية تحت رقم 639.

2- البرذون : يطلق على غير العربي من الخيل والبغال.

3- أنساب الخيل ص6.

4- الناصية: الشعر المسترسل على الجبهة. قيل: وكُنّي بالناصية عن ذات الفرس كما يقال فلان مبارك الناصية وميمون الغرة.

والتاجي الصاحبي 7هـ والنميري الأندلسي 657هـ وابن خلف الدمياطي 795هـ وابن هذيل الأندلسي 8هـ والبلقيني 805هـ إلى الأمير محمد بن عبد القادر الجزائري (1913هـ) مؤلف كتاب «عقد الأجياد في الصافنات الجياد»[1] و«معجم أسماء الخيل وأصولها عند العرب» في مجلدين لعلامة الجزيرة حمد الجاسر رحمه الله.

والكتاب الذي نقدمه اليوم هو أحد هذه المؤلفات الهامة في الخيل، أحاط فيه مؤلفه محمد الزكي بن محمد الهاشمي بن محمد الكبير الحسني العلوي إحاطة كبيرة بالخيول العربية من حيث تاريخها وصفاتها وأسمائها وركوبها وصبرها على المواجهة والقتال وأمراضها وأدوائها، وأهداه إلى سلطان المغرب المولى عبد الرحمن بن هشام العلوي مذكرا إياه باهتمام أجداده بهذا الحيوان[2] وعنايتهم به، وارتباطهم له، اقتداء بالرسول عليه الصلاة والسلام وبالسلف الصالح من الصحابة والتابعين وخلفاء المسلمين في الأقطار الإسلامية عبر العصور. وقد أعطاه السلطان عطاء فاق كرم ابن جدعان وحاتم الطائي اللذين يضرب بهما المثل في السخاء والجود فدعا له بتوسيع رقعة ملكه بقوله: «ووسَّع الله أعمالك بالسودان والجزائر وأيدك بتأييد إذ أنت لها زائر».

وتقديرا للخيل وتنويها بقدرها السامي فقد وضع المؤلف عشرة عناوين لهذا الكتاب كما صنع كثير من المؤلفين قبله وبعده – العباس بن إبراهيم المراكشي سمى كتاب الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام بعشرة أسام – وهي على التوالي:

1. تقويم الانحراف والميل للمكلفين بأمور الخيل.
2. حسن المسامرة بالليل الجامعة لأحاديث الخيل وهو العنوان الذي تم الاختيار عليه.
3. مجتمع السيول الجامع لأحكام الخيول.
4. أنس الساري بالليل للمطرب بمحاسن الخيل.
5. الصاع الموفى للكيل الممتلئ بأوصاف الخيل.
6. تشمير الأطراف والذيل لركاب العتاق من الخيل.
7. صلصة الجرس المؤنسة لراكب الفرس.
8. مزيل الصمم والخرس لمن صرف همته في اتخاذ الفرس.
9. مصباح حنادس الليل المهدى لأشراف قيل.
10. منن واهب الإحسان لمن عد في الحلبة من الفرسان.

1- اختصره مولفه في كتاب بعنوان: «نخبة عقد الأجياد» وكلا الكتابين مطبوع وهما معا في الخيل ومحاسنها وما قيل فيها. وللتذكير فإن المؤلف كان يحمل رتبة فريق في الجيش العثماني وتوفي بالآستانة في عام 1913م. ومعروف أن الأمير عبد القادر الجزائري توفي بدمشق عام 1883م ودفن بجوار الصوفي محيي الدين ابن العربي والصافن من صفَن الفرس يصفِنُ صفونا أقام على ثلاثة قوائم وطرف الرابعة وهو الذي يرفع إحدى رجليه ويقف على طرف منكبيه.

2- ذكر المؤلف أن السلطان المولى إسماعيل كان له 224 ألفا من الخيل.

يذكر المؤلف في مقدمة الكتاب أنه وضعه في مقدمة وأربعة أبواب، وجعل كل باب في مجموعة من الفصول، وقد وشحه باستطرادات وحكايات حوّلت الكتاب إلى درة مكنونة في الأصداف كما يقول كانت المقدمة عبارة عن تنويه بالخيل وما جاء فيها من أحاديث وأقوال وأمداح فحمد الله الذي أنعم على عبده بركوب الخيل مُذكرا بقول الشاعر:

أطيب الطيبات موت الأعادي وركوبٌ على متون الجياد
ورسولٌ أتى بوعد حبيب وحبيبٌ أتى بلا ميعاد

كما تحدث فيها عن خَلق الخيل، وعن أول من ركبها وهذبها، وهونبي الله إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام إلى عهد الرسول سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وما ورد فيها من أحاديث نبوية شريفة.

وقد سمى الباب الأول:«اتخاذ الأباريق والأكواب للشرب في أول الأبواب»، ذكر فيه ما للخيل من الأسماء بدءا بالحديث عن لفظ الخيل فقال: الخيل اسم جمع عند سيبويه، وجمع الجمع عند أبي الحسن الأخفش لا واحد له من لفظه كالقوم والرهط والنفر. وحسب أبي عبيدة معمر بن المثنى الخيل لفظ وهو مؤنث وجمعها أخيال وخيول – وقيل كذلك سميت الخيل خيلا لاختيالها في المشية يقال: اختال في مشيه: تمايل وتكبّر. وذكر الله تعالى لفظ الخيل في أربع آيات من كتابه العزيز وذلك في سور آل عمران والأنفال والنحل والحشر وأقسم بها سبحانه وتعالى في سورة العاديات وهذا من شرفها.

أما لفظ فرس فيذكر ويؤنث وقيل هو مذكر ومؤنثها فرسَة وتصغيرها فُريسة والجمع أفراس وفُرُسٌ وراكبه فارس.

ثم تعرض لأسماء الخيل التي يفوق عددها خمسمائة اسم ووصف مشيرا إلى أن كثرة الأسماء تدل على عظمة المسمّى، وسميت الخيل بهذا العدد الكبير من الأسماء لكرمها وعظمتها عند الله والرسول صلى الله عليه وسلم ولشرفها وعظيم وقعها في القلوب. والذي قد يميزُ هذا المخطوط عن غيره من كتب الخيل هو الشرح اللغوي الذي خص به هذه الأسماء كأن يقول مثلا: الكُميت: من كَمُتَ ككرُم كمتاً وكَمَاتة ولونه الكُمتَة ويؤنث وهو تصغير الأكمت وهو الفرس الشديد الحمرة الذي يُخالط حمرتَه سواد، ولا يقال له كميتٌ حتى تكون غرتُه وذنَبُه أسودين وإن كان أحمرين فهو أشقر. والوردي هو الفرس الذي بين الكميت والأشقر تشبيها له بالورد والأنثى وردة وجمعها أوراد ووُرَّاد ووردانٌ. والصيدح هو الفرس الشديد الصوت من صدَحَ إذا رفع صوته.

أما العاتق والعتيق من العِتق وهو الكرم والجمال والنجابة والشرف والحرية وهو الفرس الرائع الكريم – والعتاق من الخيل النجائب، والعرب تسمى كلّ شيء بلغ الغاية في الجودة عتيقا، ومنه البيت العتيق والكعبة المشرفة لأنه أول بيت وضع في الأرض – والخيل العتاق هي الخيل العراب ذات الأصل العربي الصرف (Pur sang) قيل سميت كذلك لأن أول من ركبها إسماعيل وهو أبو العرب. وقد ميز المؤلف بين العِراب والمقارف والمهاجن والهمالج (السهلة الانقياد) والبراذن- فالخيل العراب هي العتاق من أب وأم عربيين والمقرف من أمه عربية وأبوه غير عربي والهجين من أمه أجنبية وأبوه عربي والبرذون من أبواه أعجميان- ويبرز المؤلف أن الفرق بين العتيق وبين الهجين والمقرف يكمن في الصهيل فإذا صَهَل الفرس يُعرف عِتقه وسلامته من الهجنة. وقد يبلغ هذه الدرجة من المعرفة ذوو التجربة والمراس والتعامل مع الخيول العتاق وفي هذا الباب كذلك ذكر المؤلف أفراس الرسول عليه الصلاة والسلام وقال إن عددها ثلاثون فرسا حسب ما جاء في كتاب الزين العراقي عن الخيل[1] وقد تولى شرح معانيها كالسكب واللّزاز والمرتجز والظَّرِب ككتف واحدة وهي الجبال الصغار سُمّي به لقوته وصلابة حافره ولكبره وسمنه.

أما الباب الثاني الذي سماه «تشمر الأثواب للداخل في ثاني الأبواب» فقد خصه لذكر الثّنيّات[2] الثابتة والأوصاف التي قررها أهل المعرفة والإنصاف معتمدا في ذلك على ما جاء من أوصاف للخيل في الأحاديث النبوية الشريفة وما ذكرته مصادر التراث «كفقه اللغة» للثعالبي وغيره. فإنه تتبّع في هذا الباب أسماء الخيل منذ ميلادها إلى كبرها كأن يقول مثلا: الفِلْوُ هو الصغير من كلّ ذي حافر[3] وإن أتم السنة فحَوْلِيٌّ، وفي الثانية جَذَعٌ ، وفي الثالثة ثَنِيٌّ، وفي، الرابعة رباعي، وفي الخامسة قريحُ – وقد خص هذه الألفاظ كلها بالشرح اللغوي فذكر الأفعال والمصادر ومختلف المعاني حسب ما جاء في المعاجم وفي كتب التراث. ثم انتقل إلى ذكر أوصاف الخيل كأن يقول: إذا كان الفرسُ أسود قلت أخضر، وإذا قلّ سواده قلت أدهم، فإن خالطه بياضٌ قلتَ سُسَنِي، وهو عند العوام حديدي فإذا ، كان البياض أكثر قلت أشهب قرطاسي فإذا كان السواد أكثر قلت أحمر، فإن خالطت شُهبته حمرة قلت أصنبي، فإن كانت حمرته في سواد فهو كميت، فإن كان خالص الحمرة فهو ورديّ، فإن خالطت

1- المناوي: شرح ألفية العراقي. والسكب سماه صلى الله عليه وسلم من سكب الماء كأنما يسيل وهو الجواد السريع الخفيف الروح وهو أول فرس ملكه الرسول صلى الله عليه وسلم وكان كميتا أغرّ مُحجلا. واللِّزاز ككتاب من قولهم لازززته لاصقته كأنه يلتزق بالمطلوب لسرعته. والمرتجز هو الحسن الصهيل كأنه ينشد رجزا.

2- الخيل في سنتها الثالثة.

3- فلوت الفرس عن أمه إذا فطمته.

الحمرة صُفرَةٌ فهو أشقر فإن كان سواده في شُقرة فهو أدبس، فإن كانت كميته بين البياض والسواد فهو أغبس، وإن كان بين الدهمة والحمرة فهو أحوى، فإذا قاربت حمرته السواد فهو أحور، وإذا لم تكن فيه شِيَّةٌ فهو بهيم وإن كان فيه بياض في قوائمه فهو مُحجَّلٌ. وقد عدّ المؤلف عشرات الأوصاف حسب اختلاف الألوان وتداخلها في جسم الفرس.

وبعد ذلك ذكر المؤلف كُنى الخيل فقال: إن الفرس يُكَنّى أبا شجاع وأبا طالب وأبا مدرك وقال إنه أقرب مزاجا للآدمي وأنه أشبه الحيوانات بالإنسان لما يوجد فيه من الكرم وشرف النفس وعلو الهمّة فلا يبول ولا يروث ما دام راكبه عليه ومنها من يعرف صاحبه فلا يمكن غيره من الركوب عليه. ومن أخلاقه الدالة على شرف نفسه وكرم طبعه أنه لا يأكل من علف غيره إلا بإذن. ومن علو همته أن بعض الأفراس لا يدخل عليها سائسها إلا بإذن. وهو أن يحرك لها المخلاة فإن حمحم دخل وإن لم يحمحم شده عليه. وذكر المؤلف أن الأنثى من الخيل ذات شبق شديد ولذلك تطيع الفحل من غير جنسها ونوعها.

ومن طبع الفرس أنه لا يشرب الماء إلا كدرا وإذا رآه صافيا كدره.

أما الباب الثالث الذي سماه المؤلف «معاليق الأكواب للشارب من ثالث الأبواب» فقد أبرز فيه كيفية مسابقة الخيل في ميادين النضال ، وذكر الأحكام الشرعية التي بينها الجواد المفضال. فذكر أسماء أماكن السباق مع بيان أصولها وكيفية النطق بها كالميدان فيقول ميدان على وزن شيطان وميدان على وزن ميزان (وهي كلمة فارسية) والمضمار وهو الموضع التي تضمر فيه الخيل أي يربط ويعلف ويسقى كثيرا مدة ويركض في الميدان حتى يخف ويدق فيصبح ضامرا صالحا للسباق ومدة التضمير عند العرب أربعون يوما. ومنها كذلك المجال والجلبة بالجيم وبالحاء المهملة وبعد ذلك ذكر أسماء الخيل التي تصلح للسباق منها الضامر والمجلي (جلى الفرس تجلية : سبق في الحلبة) والمصلي (صلى الفرس في السباق : جاء مصليا وهو الثاني في السباق) والبارع والتالي وهو التابع والمرتاح (بكسر الميم) والخطيء والعاطف ومؤمل والسكيت[1] (بشد الكاف) والفسكل وغيرها (آخر الحلبة من الخيل) وبعد هذا دعا المؤلف إلى العناية بالخيل بحيث ينبغي للراكب أن يعتني بعلف فرسه وسرجه وألا يعروريه. فمن حيث العلف والإطعام قال صلى الله عليه وسلم : (ما من فرس إلا ويؤذن له بدعوة يدعوها عند كل سحر : اللهم خولتني من بني آدم وجعلتني من أحب أهله وماله إليه). وقد ذكر المؤلف كثيرا من الأدعية التي وردت عن الرسول منسوبة للخيل نقلها

1- آخر ما يجيء في الخيل من الحلبة

الفقهاء وأصحاب الحديث تبشر بالخير كل من اعتنى بها. ثم تحدث المؤلف عن أوقات ركوب الخيل بحيث ينبغي ألا يركب الرجل الفرس إلا على خلاء البطن من غداء أو شراب فإن ركبه على امتلاء الطعام فإن ذلك مضرة بالراكب. وبعد ذلك ذكر الأوصاف التي يجب أن يتصف بها المقاتل على الفرس، فمن حيث الشجاعة يكون كالأسد لا يجبن ولا يفر، ومن حيث الحملة والهجوم يكون كالخنزير لا يولي دبره، ومن حيث حمل السلاح الثقيل فيكون كالنملة يحمل أضعاف وزنها، ومن حيث الثبات يكون كالحجر لا يزول عن مكانه، وفي الصبر يكون كالحمار، وفي الوفاء كالكلب إذا دخل سيده النار تبعه إلخ...

أما الباب الرابع الذي سماه تسكين الروابع[1] بذكر الباب الرابع فقد ذكر فيه أحكام طب الخيل وأدويتها وما يلحقها من العيوب التي فطرها عليها علام الغيوب. وقد استهله بذكر الأسرار الربانية في ابتلاء بعض البشر والحيوانات بالأمراض والأدواء ليحمد الله تعالى ويشكره الذين متعهم بالصحة والعافية في تيسير الدواء للذين صبروا على ما أصابهم به فسبحانه من حكيم ما أحكم صنعه فإنه ينزل الداء والشفاء ويأمر الناس بقراءة القرآن فهو شفاء يقول سبحانه: ﴿وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمومنين﴾، وقال صلى الله عليه وسلم (الفاتحة شفاء لكل داء.) ففي الكتاب والسنة دليل واضح على جواز استعمال المؤمن الرقى[2] والأدوية للمصاب سواء كان إنسانا أو حيوانا. وقبل الحديث عن أمراض الدواب تحدث عن عيوبها نقلا عن عدد من مصادر التراث ذكر منها: النفار وهو التفرّف يقال نفرت الدابة إذا جزعت وتباعدت، ومنها الحرن يقال حرنت الدابة تحرن حرانا فهي حرون وهي التي وقفت حين طلب جريها ورجعت القهقري. أما أمراضها فمتعددة ذكر منها الدخس وهو ورم في طرف الحافر. والجرد هو كل ما يصيبه في عرقوبيه[3] وتزايد عصب والسرطان وهو داء يأخذ في الرسغ (استرخاء في قوائم البعير) والرهص يقال رهص الفرس إذا أصابته الرهصة وهي وقرة تصيب باطن حافره (وقرت الدابة أصاب حافرها حجر فنكبه). وبعد هذا يؤكد اللجوء إلى الرقى والتمائم والطب الروحاني إذا أصيب الفرس بأحد هذه الأمراض أو أصابه الإكفاء والإقواء وتعني قلة الأكل وضمورالدابة.

والمغل من مغلت الدابة إذا أكلت التراب مع الحشيش فوجع بطنها. وفي فصل من فصول القسم الرابع سماه المدد الرحماني بالطب الجسماني يؤكد أن الطب الروحاني والرقى تفيد

1- ج روبعة هو داء يأخذ الفصيل وهو ولد الناقة أو البقرة بعد فطامه وفصله عن أمه
الفصال : الفطام قال تعالى : وحمله وفصاله ثلاثون شهرا أي يفصل عن الرضاعة
2- رقى المريض يرقيه رقيا ورقية عوذه. ويقال باسم الله أرقيك والله يشفيك.
الرقية – العوذة – وهناك من الفقهاء من لا يجيز الرقية
3- العرقوب : الركبة

وتعالج وتَنجَعُ إذا صلحت الطوية وحسنت النية. عند من يلتجئ إليها ومن يفتقر إلى هذه الخصائص فينصحه باستعمال الأدوية التي ترافق الأغراض والأهوية وأن يطلب من الله تعالى الشفاء فما هذه الأدوية إلا وسائل والشافي هو الله سبحانه. ثم فصل القول في المواد التي تستعمل لدواء الفرس مما يصاب به من أنواع الأمراض مثل إذا أصاب الفرس الجرب بسبب كثرة أكل اليابسات والجري في الحر فعلاجه ساق الحمام والبقل و العفص وحور السرو ودخان الفرن وبعر المعز والرمان وورق الدفلى. ومن هذه الأمراض العنكبوتية وهو مرض يكون في الأنف، ومرض الضفدع وهو عروق خضر تحت اللسان ومرض الساعية وهو الزائد من الأسنان يمنع الأكل واللجام فعلاجه القلع إذا أمكن والسعال وغيرها وقد سرد المؤلف مجموعة من أمراض الفرس واقترح المواد التي تعالجها وختم هذا الباب بالحديث عن المواد التي تستعمل من أجل تغيير لون الفرس كتحويله من الأشقر إلى الأشهب، أو من الأدهم إلى الأزرق أو من الوردي إلى الأحمر أو إلى غيره من الألوان وذلك بعرض المواد المختلفة لبلوغ هذه الغاية.

إن القارئ لهذا الكتاب يدرك لأول وهلة أن المؤلف وقف على مجموعة من الكتب العربية المؤلفة في الخيل كما وقف على عدد كبير من مصادر التراث العربي من تفسير وحديث وتراجم وأخبار وغيرها. فمن حيث التفسير القرآني فإنه يحيل إلى تفاسير الثعلبي والبغوي والزمخشري والتفسير المنسوب لابن العربي الحاتمي وغيرها كما يحيل إلى كتابه «الفتوحات المكية.» وتؤكد لغته أنه قرأ كثيرا من كتب الصوفية بدءا بتفسيري القشيري وابن العربي حيث استعمل مجموعة من المصطلحات الصوفية كالخلوة والجلوة وغيرها ويستعمل في لغته السجع في كثير من الأحيان وينقل من كتب التراث أحيانا أخرى.كما يلاحظ كثرة الأخطاء اللغوية والنحوية مما يدل على أن الكتاب ليس من نسخ المؤلف بل نسخه أحد تلامذته أو أحد معاصريه أقل ثقافة من المؤلف. خط مغربي متداول في القرن التاسع عشر. والكتاب يخلو من تاريخ النسخ واسم الناسخ لضياع الصفحة الأخيرة التي تحمل عادة تقييد الفراغ. وأخيرا أهيب باللجنة المكلفة بالقيام بهذه التظاهرة العلمية عن الفرس وخصوصا منها الأطباء البياطرة أن يعودوا إلى هذا الكتاب لأنهم سيجدون فيه معلومات خاصة بأدواء الفرس وبأسماء الأدوية لعلاجها ربما غفل عن بعضها أو جهلها علم البيطرة الحديث.

الفرس والفروسية في الثقافة العربية الإسلامية

ذ. محمد الفران(*)

قال الجاحظ (تـ255 هـ) «**لم تكن أمة قط، أشد عجباً بالخيل، ولا أعلم بها، من العرب**» وقد لعبت الخيل دوراً بارزاً في حياة العرب، وتركت أبلغ الأثر في لغتهم وأدبهم وطباعهم خصوصا بعد الفتوحات الإسلامية. فمن حيث اللغة أضافت إليها كثيراً من الألفاظ التي تتعلق بأعضائها وصفاتها وطباعها وحركاتها. وفي مجال الأدب ألهبت أخيلة الشعراء، فتغنوا بشجاعتها ورشاقتها وخيلائها. وأما طباع العرب فقد روضتها الفروسية، فأحسنت رياضتها، وبثت فيها النخوة والحمية.

وتضم المكتبة العربية مؤلفات لا تُحصى حول فصائل الخيل، وآداب الفروسية، وأخبار الفرسان. منها ما خصص موضوعه للفرس ومنها ما جاء عرضا في ثنايا فصوله وأبوابه. أما الأول فنذكر لابن الكلبي (تـ204هـ)، كتاباً في **نسب الخيل في الجاهلية والإسلام وأخبارها**، وهناك أيضا لأبي عبيدة (تـ210هـ)، كتاب الخيل، وللأصمعي كتاب سماه **الخيل**، وقد كان من أعلم الناس بها، وبمعلومات العرب عنها. وقد ألّف ابن الأعرابي (تـ231 هـ) كتاباً في **أسماء خيل العرب وفرسانها**. وجمع الحافظ شرف الدين الدمياطي (تـ705هـ)، في كتابه **قطر السيل في فضل الخيل**، كثيراً من الأحاديث النبوية الشريفة التي تدعو إلى ارتباط الخيل، وتوصي بها خيراً.

ولم تخل مصادر الثقافة الأدبية العربية من ذكر الفرس وإفراد فصول وأبواب خاصة بها كأبي عبيد بن سلام (تـ224 هـ) في كتابه **الغريب المصنف** والجاحظ في «**الحيوان**» وابن قتيبة (تـ276 هـ) في عيون الأخبار وابن عبد ربه (تـ328 هـ) في **العقد الفريد**، وأبي علي القالي تـ356هـ في **النوادر**، وابن خالويه (تـ370هـ) في **شرح مقصورة ابن دريد** والراغب الأصبهاني (تـ 502هـ) في كتابه **محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء**، والثعالبي (تـ428هـ) في **فقه اللغة** والحصري القيرواني (تـ502 هـ) في **زهرالآداب** وابن رشيق (تـ456هـ) في **العمدة** والزمخشري (تـ538هـ) في **ربيع الأبرار** وغيرهم كثير. كما أطنب النويري (تـ733هـ) في كتابه **نهاية الأرب في فنون الأدب**، في الحديث عن فضل الخيل وصفاتها وعيوبها.

(*)- ذ. محمد الفران : المعهد الجامعي للدراسات والأبحاث للتعريب - الرباط

ومن أشهر الكتب العربية التي ألفت في فنون الفروسية كتاب **آلات الجهاد وأدوات الصافنات الجياد** لـسليمان بن بنين النحوي المعري، وكتاب **حلية الفرسان و لباس الشجعان** لابن هذيل الأندلسي. كما ألف جلال الدين السيوطي في هذا الباب كتابا سماه **جر الذيل في علم الخيل**.

وصنف المغاربة في هذا الفن أيضا حيث نجد أرجوزة للقادري بن عبد القادر بن العربي(تـ1199 هـ) المعنونة **بتميمة الأجياد في الصافنات النجباء الجياد** وكتابا لمحمد بن خليل السكوني بن أحمد عاقد الشروط المراكشي· بعنوان **ركوب الخيل وتعليم شياتها**. وهناك كتاب لمحمد بن رضوان الدادشي الذي ذكره لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة والسيوطي في بغية الوعاة في أخبار اللغويين والنحاة بعنوان الاحتفال في **استيفاء ما للخيل من الأحوال**. وهناك أرجوزة أخرى لمحمد بن عبد الكريم الخمسي العمراني من رجالات القرن الثاني عشر سماها **نظم في علم الرماية والركوب على الخيل**.

1 - المعنى اللغوي للفرس

نجد في اللغة العربية ثلاث مفردات معجمية هي: الحصان والفرس والخيل. وقد تعرضت المعاجم العربية إلى الفروق الدقيقة بينها من خلال الوقوف على أصولها الاشتقاقية ودلالاتها المعجمية.

فالفرس واحد الخيل والجمع أفراس، الذكر والأنثى في ذلك سواء، وأصله التأنيث. ولفظها مشتق من **الافتراس لأنها تفترس الأرض بسرعة عدوها**.

كما أن «الحِصان» حسب ابن منظور: يُطلق على الفحل من الخيل، ويُجمع على حُصُن ، قيل: إنما سُمي حِصَاناً لأنه حصَّن ماءه فلم ينْزُ إلاّ على كريمة.

والخيل: جماعة الأفراس لا مفرد له من لفظه، وهي مؤنثة، والجمع خيول. وسميت الخيل خيلاً لاختيالها في المشية فهو على هذا اسم للجمع . وورد في كتاب الخيل للكلبي: أن اسم الخيل مشتق من خال يخيل خيلا واختال اختيالا إذا كان ذا كبر وخيلاء، ذلك أن الخيلاء صفة في الخيل لا تكاد تفارقها. «سئل أعرابي بمحضر أبي عمرو بن العلاء عن اشتقاق

الخيل، فقال: اشتقاق الاسم من فعل المسمى، فلم يعرف الحاضرون ما أراد، فسألوا أبا عمرو بن العلاء فقال: ذهب إلى الخُيلاء الذي في الخيل».

أما لفظ العود الشائع في المغرب العربي، ويجمع على عِوَدة ففي اللغة هو المسن من الإبل وفي الأمازيغية هو أسردون أو أسرتي حسب اللهجات.

2 - النصوص الدينية الإسلامية في فضل الخيل

ولقد ورد ذكر الخيل في القرآن الكريم في عدة مواضع كلها تدور حول حقلين دلاليين. الحقل الأول يدور حول القوة والبأس والفروسية والشدة في ساحة قتال الأعداء. والثاني يرتبط بالزينة والنعم التي حبا الله بها الإنسان ومكنه منها. ونسوق من ذلك ما يلي:

ففي سياق الزينة ونعم الخالق وفضله على العباد نجد قوله تعالى في سورة آل عمران، الآية 14: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾. وكذلك قوله تعالى في سورة النحل الآية 8: ﴿ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

أما الحقل الدلالي الذي يدور حول القوة والشدة وكل ما يتعلق بساحة المعركة والقتال فنجد قوله تعالى في سورة الإسراء الآية 64 : ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

بل أقسم الله تعالى بالخيل في سورة العاديات ودائما في سياق الحديث عن قتال الأعداء والمعارك الحامية الوطيس: ﴿ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا (1) فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا (2) فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا (3) فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا (4) فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا (5) ﴾ .

ومن قصص الأنبياء يحدث القرآن الكريم عن سليمان في سورة ص الآيات 30 ـ 33: ﴿ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب. إذ عُرض عليه بالعشي الصافنات الجياد . فقال إني أحببت حُب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب . رُدوها علي فطفق مسحاً بالسوق والأعناق﴾ .

والصافنات من الخيل هو القائم على ثلاثة قوائم وقد أقام الرابعة على طرف الحافر، والجياد هي الخيل سريعة العدو وجيدة الركض، و بذلك فإن الخيل الواردة في هذه الآيات الكريمة إنما تعتبر من خير الخيول، و أفضلها منظراً واستعداداً وحركة وعدواً. وقد ذكر بعض المفسرين في تفسير هذه الآيات أن سيدنا سليمان عرض عليه الخيل الجياد في وقت العصر فألهاه هذا العرض عن صلاة العصر فلما اقترب المغرب غضب، وطلب من الله أن يرد الشمس بعد أن غربت ليصلي العصر فردت.

وقد رويت أحاديث نبوية شريفة عن فضل الخيل وبيان مكانتها في الإسلام. ويمكن تصنيف هذه الأحاديث إلى ثلاثة أصناف بغض النظر عن سندها ونص روايتها.

الصنف الأول يتحدث عن الخيل بوصفها خيرا وبركة وبوصفها مخلوقا شريفا كريما يؤجر ويثاب صاحبها كلما اقتناها وأحسن إليها، يقول الرسول:**(الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة فامسحوا نواصيها وادعوا لها بالبركة.)** وقال عليه الصلاة والسلام: **(من ارتبط فرساً في سبيل الله كان له مثل أجر الصائم القائم والباسط يده بالصدقة مادام ينفق على فرسه.)** كما ورد عنه أيضا في تكريم الخيول والعناية بها، وتشجيع اتخاذها وتملكها؛ قوله(ص): **(خير مال المرء مُهْرةٌ مأمورة أو سكة مأبورة)** (مسند أحمد، الحديث الرقم 15284) (سكة مأبورة: أي نخل ينبتُ على صفين ملقح). وفي الصحيح عن جرير بن عبد الله، رضي الله عنه، قال: **(رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّه صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ يَلْوِي نَاصِيَةَ فَرَسٍ بِإِصْبَعِه وَهُوَ يَقُولُ الْخَيْلُ مَعْقُودٌ بِنَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ الأَجْرُ وَالْغَنِيمَةُ)** (صحيح مسلم، الحديث الرقم 3479).

الصنف الثاني من الأحاديث يدعو فيها الرسول جماعة المؤمنين للحفاظ على جمال أفراسهم ورونقها وعدم مسها بأي سوء ورعايتها الرعاية التامة. فقد روي عنه (صلى الله عليه وسلم) قوله: (**لا تَقُصُّوا نَوَاصِي الْخَيْلِ وَلَا مَعَارِفَهَا وَلا أَذْنَابَهَا فَإِنَّ أَذْنَابَهَا مَذَابُّهَا وَمَعَارِفَهَا دِفَاؤُهَا وَنَوَاصِيَهَا مَعْقُودٌ فِيهَا الْخَيْرُ)** (سنن أبي داود، الحديث الرقم 2180) (نواصيها: مقدمة رؤوسها، معارفها: شعر عنقها). وروي أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) **(رُئِيَ يمسح وجه فرسه بردائه فسئل عن ذلك؟ فقال: إني عُوتبت الليلة في الخيل)** (موطأ مالك، باب الجهاد، الحديث الرقم 890). وروي عن أبي ذر الغفاري، رضي الله عنه، أنه قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) (**مَا مِنْ فَرَسٍ عَرَبِيٍّ إِلاَّ يُؤْذَنُ لَهُ عِنْدَ كُلِّ سَحَرٍ بِدَعْوَتَيْنِ اللَّهُمَّ خَوَّلْتَنِي**

مَنْ خَوَّلْتَنِي مِنْ بَنِي آدَمَ وَجَعَلْتَنِي لَهُ فَاجْعَلْنِي أَحَبَّ أَهْلِهِ وَمَالِهِ إِلَيْهِ أَوْ مِنْ أَحَبِّ مَالِهِ وَأَهْلِهِ إِلَيْهِ) (رواه النسائي، الحديث الرقم 3523).

أما الصنف الثالث فيه يدعو الرسول المؤمنين إلى اكتساب قيم المروءة والشجاعة من خلال إتقان فنون الحرب والقتال ومن ضمنها إجادة ركوب الخيل إذ يقول : «**علموا أبناكم السباحة والمسايفة وروكوب الخيل**». ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم بمعية المسلمين يتدربون على الفروسية بوصفها وسيلة من وسائل الجهاد. فأفردوا ساحات ليتبارى فيها المتسابقون. وحدد الرسول الله مضامير مخصوصة لكل صنف من صنوف الخيل فللخيل التي أضمرت مكان، وللخيل التي لم تُضْمَر مكان آخر. ويروي لنا البخاري في صحيحه أن الرسول صلى الله عليه وسلم **أجرى ما ضمر من الخيل من الحفياء إلى ثنية الوداع، وأجرى ما لم يضمر من الثنية إلى مسجد بني زريق.فمن الحيفاء إلى ثنية الوداع هو مضمار الخيل التي أضمرت. وأما التي لم تضمر فكان مضمارها من ثنية الوداع إلى مسجد بني زريق**. وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتهز كل فرصة ممكنة ليسابق بين الخيل، سواء كان ذلك في المدينة والمسلمون لم يتهيأوا للحرب بعد، أم خارجها وهم راجعون من الغزو.

3 - الخيل في الشعر والأمثال العربية

أول ما يلاحظه الدارس في هذا الباب أن الأشعار والأمثال العربية التي تحدثت عن الفرس أقامت علاقة من العلاقات بين الفرس والإنسان على حد ما استقرت عليه الذاكرة الجمعية عندهم. وهذه العلاقات التي عقدت تبني على مبدأ هام هو خصال المروءة والنبل والشرف.

فعلى مستوى الأمثال العربية نلاحظ أن معظمها يدل على المكانة الرفيعة التي للخيل عند العرب أولا لأنهم جعلوها مضرب المثل وثانيا لأنهم جعلوها رمزا للأخلاق المحمودة والخصال الكريمة وثالثا لأنهم شبهوا صفات الفارس النبيل الخِلقية والخلقية بها. وهاهي أمثلة على ذلك :

- الخيل ميامين: أي مبارَكات، من اليمن والبركة.
- الخيل أعلم بفرسانها: يضرب المثل للرجل الذي يظن أن عنده غَناء (فائدة)، ولكنه لا غَناء عنده، كما يُضرب مثلاً في العلم بالأمر ومعرفته.
- أبصَرُ من فرس: لحدة بصره.
- أتعب من رائض مهر: لما يبذله من جهد في الترويض.
- أسرع من فريق الخيل: كناية عن السرعة والانجاز.

- أسمع من فرس بهيماء (تصغير أبهم، وهو حلكة اللون) في غلس (ظلام حالك). يُضرب مثلاً لحدة السّمع.
- أشد من فرس: يُضرب مثلاً للصبر والقوة.
- إن لكل جواد كبوة: أي عثرة، والمعنى أنّ الكريم أو الشريف ينبغي ألاّ يُذمّ إذا وقعت منه هفوة.
- تركته على مثل خد الحصان: أي على طريق واضح.
- جاء وقد لفظ لجامه: يُضرب المثل لعدم المبالاة والانفلات والتحدي التام.
- الخيل تجري على مساويها: (مساويها أي عيوبها)، والمعنى أن الخيل، وإن كانت بها عيوب، فإن كرمها وعزة نفسها تحملها على الركض، وكذلك الرجل الكريم يحمل نفسه على المحمل الحسن، على ما به من هنات وعيوب.
- ليس الفرس ببجله وبُرقعه (البجل ما يوضع على الدابة لتُصان به، والبُرقع: قناع الدواب؛ أو لباسه)، ويُضرب المثل أن الرّجل بجوهره وليس بمظهره.
- هما كفرسي رهان: يُضرب مثلاً للمتساوين في الفضل أو القوة.
- إن العصا من العصية: والعصا اسم فرس أمها فرس اسمها العصية، ويدل المثل على عامل الوراثة، وأن الفرع يؤثر فيه الأصل.

1 - من هذا المنطلق عامل الفارس العربي حصانه معاملة خاصة. وقد ورد في الأثر: «كان العرب لا يهنأون إلا بغلام يولد لهم، أو شاعر ينبغ فيهم، أو فرس تنتج»[1] بل صارت مكانة الفرس من صاحبه كمكانة الصديق والقرين وجعله الشاعر العربي جزءاً من نفسه، بل كثيراً ما كان يُقَدّمه على نفسه وأُسرته فيؤثره بالطعام والشراب وإن بات هو جائعا. بل لا يجد حرجا حتى في إيثاره على الولد والزوج. ناهيك عن تعليق التمائم خوف الحسد والعين، مثلما يُعلقها للسبب ذاته.

ومما ورد في التراث من تفضيل الخيل على الولد والزوج، قول الشاعر عبيد بن ربيعة:

مفَدّاةٌ مكَرّمةٌ علَينا يجاعُ لها العيالُ ولا تجاعُ

فهو يُكْرم فرسه، ويفديه بنفسه، ويؤثره بالطعام حتى لو أجاع عياله من أجله.
كما يصف ثعلبة العبدي حبه لفرسه «عريب» فيقول:

إنَّ عرَيباً وإن ساءني أحبّ حبيبٍ وأدنى قريبِ
سأجعل نفسي له جنة بشاكي السِّلاحِ نهيبٍ أريبَ

1- العمدة في محاسن الشعر و آدابه : 153/1

ويقول الأخطل:

أَحبوا الخيل واصطَبروا عليها ... فإنَّ العزَّ فيهـا والجـمـالا
إذا ما الخيلِ ضيعها رجـــالٌ ... ربطناها فشاركت العيـــالا
نصونُ الخيلَ ما دمنا حَضـورا ... ونحذوهنّ في السفر النِعال

فالشاعر هنا يصرح بمشاركة الخيل عياله في الطعام والشراب.

ومالك بن نويرة يقول:

أعلُلُ أهلي عن قليلِ متاعهـم ... وأسقيه محض الشوْل والحيُ هاتفُ

أي يصرف عياله عن قليل الطعام الموجود، ويُقدمه لحصانه.

وقد تغار المرأة من تفضيل زوجها لحصانه وتعلقه به. وهو ما وقع للشاعر الأعرج الطائي الذي يُنكر في هذه الأبيات غيرة زوجته من تعلقه بفرسه (الوِرد)

أرى أم سهلٍ ما تزال تفَجـعُ ... تلوم وما أدري علاَمَ توَجـعُ تلُوم
على أن أعطيَ الورْدَ لَقْحـةً ... وما تستوي والورْدَ ساعةَ تفْزَعُ
إذا هي قامت حاسَراً مشمعلَّةً ... نخيبُ الفؤاد رأَسـها ما تقَنـعُ
وقمتُ إليه باللجـام مُيَسِّـرا ... هنالك يجزيني التي كنتُ أصنـعُ

أما خالد بن جعفر فيقول في فرسه حَذْفَة:

أسويها بجـــاري أو بِجـــزْءٍ ... وألحفها ردائيَ في الجليـــد
وأوصي الراعيين ليغبِقَـــاها ... لها لبنُ الخلية والصعـــــود
لعل الله يفديني عليهـــــا ... جهاراً من زهيـــــرٍ أو أُسيـــدِ

وهو الرفيق والصديق الذي يبث له الشاعر همومه وأحزانه ويحاوره حوار الآدميين:

لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ... ولكان لو علم الكلام مكلمـي

ثم إنه الحصان هو

الخيل والليل والبيداء تعرفـني والسيف والرمح والقرطاس والقلم

وأيضا :

أعز مكان في الدنيا ظهر سابح وخير جليس في الزمـان كتــاب

2 - وكما حفظ العربي نسبه واعتزّ به، حفظ كذلك نسب حصانه، وحرص على ألاّ تشوب أصالته شائبة حتى يبقى دمه نقياً ليعتز به أيضاً. لقد استطاعت العرب أن تحتفظ بمُشجّرات مطولة بأنساب خيولها وأسمائها.كما احتفظت بأنساب الرجال والقبائل.

3 - وكما أن الفارس العربي الأصيل ينسب لأبيه ويكنى بابنه فإنه يلقب بفرسه حتى أننا كيف تداخلت بعض أسماء الخيول العربية الشهيرة بأسماء فرسانها، لحد أن أصبح من العسير تمييز اسم الفرس من الفارس، حيث يقال: فارس الأبْجر، وفارس الجَوْن، وفارس النّعامة، فيُلقَّب الفارس بلقب فرسه تعظيما وتكريماً. وقد اشتُهر بعض فرسان العرب بحبهم للخيل واعتنائهم بها فنسبوا إليها مثل قولهم: «زيد الخيل»، والطُّفيل الغنوي، الذي أُطلق عليه «طفيل الخيل» أيضاً، مع أنه شاعر مشهور إلاّ أن حُب الخيل غلب عليه فدعي بها.

4 -وانطلاقا من هذه المكانة التي للخيل في ثقافتنا العربية الإسلامية عرف المعجم العربي زخما وغنى في أسماء الخيل كما لا يخفى. غير أنه بموازاة ذلك نجد اللغة العربية تحصي كل صغيرة وكبيرة للخيل سواء على مستوى الشكل والخلقة أو على مستوى السلوك والطباع. وسأقتصر في هذا السياق على ثلاثة حقول دلالية[1]:

الحقل الأول عيوب الخيل: أطلقت العرب على عيوب الخيل، الجسمية وغيرها، مسميات خاصة تدل عليها؛ فمن ذلك :

الفرس الأسفي: هو قليل شعر الناصية. (الناصية مقدَّم الرأس أو شعر مقدَّم الرأس إذا طال، وسميت بذلك لارتفاع منبتها).

1- يمكن الرجوع في هذا السياق إلى المعاجم الآتية:
- الزمخشري، أساس البلاغة 538 هـ
- ابن منظور، لسان العرب 711 هـ
- الفيروزابادي، القاموس المحيط 817 هـ

والأغم: الذي يَكْثُر شعر ناصيته، حتى يغطي عينيه.
الأزور: الذي دخلت إحدى صفحتي صدره، وبرزت الأخرى.
الأصك: الذي تصطك ركبتاه وكعباه.
العضوض: الذي يعض من يدنو منه،
النّفور: الذي لا يثبت لمن يقترب منه.
الجَموح: الذي لا يوقفه اللجام عن جريه.
الحرون: الذي يُثْبت قوائمه في الأرض، ويمتنع عن السير.
القموص: الذي ينفض راكبه حتى يُسْقطه.

الحقل الثاني الجري والركض: الذي يضم مفردات معجمية كثيرة تحيل على كل أنواع مشي الخيل وعَدْوها وجريها. فمن ذلك:
الضّبرُ: إذا وثب الحصان فجمع يديه.
العَنَقُ: السير السريع، إذا باعد بين خطاه وتوسّع في مشيه.
الهَمْلَجة: إذا قارب بين خطاه، ومشى في سرعة وبَخْتَرَةٌ.
الارْتجال: إذا راوح الفرس بين العَنَقِ والهَمْلَجة.
الخَبَبُ: إذا قبض رجليه وراوح بين يديه، واستقام جريه.
الضَّبْعُ: إذا لوي حافريه إلى عضديه، وأسرع في سيره.
التَقْريب:إذا كان أثناء جريه يضع يديه ويرفعها في آن واحد، وهو ضربٌ من العدو.
العُجيلي: إذا جمع في جريه بين التَقْريب والخبب.
الإمجاج: أن يأخذ الفرس في العدو قبل أن يضطرم.
الإحْضَار: أن يعدو عدواً متداركاً، يتبع بعضه بعضاً.
الإرخاء: أشد من الإحضار.
الإهذاب: أن يضطرم في عدوه.
الإهماج: هو قصارى جهد الفرس في العدو.

الحقل الثالث الأصوات: أطلق العرب على أصوات الخيل عدداً من الأسماء، مستمدة أساسا من المحاكاة. فصوت القوة والشدة يختلف عن صوت النشاط والمرح، كما يختلف عن صوت الحنق والغضب وما إلى ذلك، مما يؤدي إلى تمثيل الصّوت في الاسم والإحساس به في الآن

ذاته. فمن هذه الأسماء:

الشّخير: إذا خرج الصوت من فم الفرس.

النخير: إذا خرج الصوت من المنخرين.

الكرير: إذا خرج الصوت من الصّدر؛ وينقسم الكرير ثلاثة أقسام: أجش، وصَلْصَال، ومُجَلْجِل.

الصّهيل: وهو صوت الفرس في أكثر أحواله، خاصة إذا نَشِطَ.

الجَلْجَلة: أحسن أنواع الصهيل. وتخرج صافية مُسْتَدقَة.

الحَمْحَمْةُ: وهي صوت الفرس إذا طلب العلف، أو رأى صاحبه فاستأنس به.

الضَبْحُ: وهو صوت نَفَسُ الفرس إذا عدا، وقد ذكرها القرآن الكريم. وهو ليس بصهيل ولا حمحمة.

النَثِيرُ: صوت الفرس إذا عَطَسَ.

البَقْبَقْةُ: الصوت الذي يخرج من جوف الفرس.

القبع: صوت يردده الفرس من منخره إلى حلقه، إذا نفر من شيء أو كرهه.

الجشّة: صوت غليظ كصوت الرعد

4 - الخيل في الثقافة المغربية

أحب المغاربة الخيل منذ فجر التاريخ وجعلوا من الفرس حيوانا في خدمة الإنسان واعتنوا به وأعطوه مكانة عظيمة وقاموا بتدريبه وترويضه. كما أن شعراء الفصيح والزجل نظموا قصائد وأراجيز في الدعوة إلى العناية به ورعايته الرعاية الضرورية والملائمة.

وبالإضافة إلى الكتب التي اختصت بالحديث عن الفرس وبيان قدره ومنزلته في الثقافة العربية الإسلامية وضمنها المغرب تعرضت مجموعة من المصادر المغربية للحصان المغربي سواء من الناحية التاريخية أو الاجتماعية بل والفقهية ايضا. نذكر من هؤلاء البكري صاحب كتاب «المغرب في ذكر افريقيا والمغرب». كما تحدث الحسن الوزان في كتابه «وصف افريقيا» عن أنواع الخيول المغربية، وخصوصا النوع العربي الذي دخل مع الفاتحين أولا بشكل محدود سرعان ما تضاعف وكثر في العهد الموحدي على إثر نزوح القبائل العربية واستقرارها في سهول دكالة وتامسنا والغرب في عهد يعقوب المنصور الموحدي.كما تحدث عن الأثمنة الباهضة التي وصلت إليها أسعار الخيول في العهد المريني لحد أن أصبحت

تحبس في سبيل الجهاد ولا يستطيع أن يملكها إلا الأمراء والأعيان وكبار التجار وشيوخ القبائل وأعوانهم. بل أصبح الناس يشتركون في الفرس الواحدة على حد ما يستفاد من معيار الونشريسي. ولعل هذا هو السبب الذي جعل تصديرالخيول إلى الخارج محظورًا منذ عهد السعديين .

إن الخيول والأفراس السلطانية التي كانت في الأروى الكبير تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

- **القسم الأول** الصافنات وهي أرقى ما في الأروى وتنقسم إلى صنفين، الأول هو أحسن وأعلى الأنواع ويطلق عليه خيل الكَادة وهي الخاصة بالسلطان، والنوع الثاني من القسم الأول تندرج تحته الخيول التي تخصص لأقارب السلطان والشخصيات المخزنية السامية.
- وهناك **القسم الثاني** ويسمى الإضافات وتخصص لعموم الأشراف والقواد وأعيان الجند في السفر.
- أما **القسم الثالث** فهي الرنانة أي الخيل المعدة للحمل والركوب لمطلق الجيش في رحلاتهم وتنقلاتهم.
- **وخيل الكادة:** هي في الواقع خيول ستة تقاد أمام الملك في المواكب الرسمية وتكون معدة ليستعملها الملك عند الحاجة ثم صارت بعد ذلك لمجرد العرض والزينة.
- **خيول الحركة** بالتعبير المغربي، خيول الحرب و يطلق هذا اللفظ على الخيل المخصصة من طرف المخزن للمعارك والحروب لا غير. ويتم تدريبها وإعدادها إعدادا خاصا حسب فنون القتال. فخيول المبارزة غير خيول الهجوم وهي ليست خيول الكر والفر.
- **الإضافات** نوع من الخيل يأتي في الدرجة الثالثة داخل أروى السلطان، وهي خيل لا يركبها سوى الأشراف وكذا القواد وأعيان الجند.
- **الرنانة:** خيول النقل
- **الحمالة خيول الحمل،** كما سماها الحسن الوزان تستعمل لحمل البضائع وسائر الأثقال على ظهورها فهي خيول غير جيدة وغالبا ما تكون مسنة أو أعفيت من خدمات أخرى.

الفراضية : نوع من خيول أروى السلطان.

المجبوذة :إن أهل البدو من العرب الذين يعتمدون في قتالهم على الكر والفر يصفون إبلهم والدواب التي تحمل ظعائنهم.

- -**خيول السباق والبريد المستعجل:**يتم تدريبها وترويضها لهذا الغرض، حيث تسابق حيوانات كالنعام فإذا تمكن راكبها من صيد هذا الحيوان وهو على ظهر فرسه عد من

اسرع الخيول وكان ثمنه باهضا.

- -**خيل الخشب:** كان بقصر ابن جامع وزير محمد الناصر الموحدي ساحة يلعب فيها خمسمائة جارية على خيل الخشب وتتطاعن.
- **الميـز:** لعب بالخيل عند استعراض العسكر والسلاح كان ينظم في باب الخميس وباب فتوح بمدينة فاس.

فلا عجب بعد كل هذا إذا وجدنا عدد الخيول السلطانية في دولة المولى إسماعيل اثني عشر ألف فرس، كلها من الجياد، ولكل فرس قيمان أحدهما من الأسارى والآخر من الأرقاء وكان كل فرس مربوطًا في قوس وبين الفرس والفرس عشرون شبرًا وكان السلطان يتعهد بنفسه فرش الإسطبل بنشارة الخشب الدقيقة، كما كان يحرص على المحافظة على أنساب الخيول(وذلك في الأروى المعروفة بمكناس بـ (روى مزيل))[1]. وفي عهد المولى عبد الرحمن بن هشام كانت دفاتر معدة لتقييد نتاج الأفراس السلطانية التي توزع عند الفطام على أراحي الجيش (أي وحداته العسكرية المؤلفة من ألف جندي) مع وصف الفرس[2].

ولا بد من الإشارة في هذا الصدد إلى أن الخيول المغربية بلغت درجة رفيعة إلى حد أن سلاطين الدولة العلوية كانوا يقدمونها هدايا إلى ملوك الدول الأخرى. لقد أهدى السلطان المولى إسماعيل للويس الرابع عشرعددا من الخيول المغربية، وهو ما فعله أيضا سيدي محمد بن عبد الله مع ملك السويد كوسطاف الثالث. كما تخبرنا بعض الوثائق الملكية أن السلاطين العلويين كانوا يهدون أيضا عدة الخيول المغربية، فالسلطان مولاي الحسن أهدى الفاتيكان سروجا وسيوفا مغربية في سفارات متعددة.

يتضح من خلال ما تقدم أن للخيل مكانة كبيرة في الثقافة العربية الإسلامية، ويتجلى ذلك من خلال الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة، كما يتجلى من خلال الأمثال العربية والشعر الذي يبرز لنا بوضوح مكانة الفرس في المجتمع العربي والدرجة الرفيعة التي كان يحتلها ليس فقط في علاقته مع صاحبه الفارس، بل في السياق الاجتماعي والثقافي على وجه العموم. ولم يكن المغرب خارج هذا السياق الثقافي بل اصطنع لنفسه هو أيضا مجموعة من العادات والاعراف التي منحت الفرس مكانة كبيرة سواء من حيث الحرص على تحسين جنسه أو من حيث التمييز بين أنواعه ووظائفه الحربية والاجتماعية.

1- عبد العزيز بن عبد الله، معجم المصطلحات العسكرية عبر العصور

2- ابن زيدان، عبد الرحمان : العز والصولة في نظم الدولة - المطبعة الملكية - الرباط 1962 ج1 ص 147.

الفرس في حضارة الشرق القديم
آثار الفرس في حضارات «العهد القديم»

ذ. أحمد شحلان(*)

العهد القديم

ماذا نقصد بالعهد القديم؟

العهد القديم، أو التوراة، كما يسمى في التراث الإسلامي، هو الكتاب اليهودي الذي كان في أصله كتاباً سماوياً أوحي به على النبي موسى لهداية الناس، ثم رُفِّد نصُّه الأصلي بكثير من تراث شعوب المنطقة القديم، على مدى قرون، بعد أن مر بمراحل شفاهية طويلة. وهو اليوم بين يدي الناس مقسم على ثلاثة أقسام هي:

التوراة والأسفار التاريخية وأسفار الحكمة

1 - التوراة وتتكون من:

التكوين
الخروج
اللاويين
العدد
التثنية

2 - الأسفار التاريخية وتتكون من:

يشوع	عموس
القضاة صموئيل الأول	عوبديه
صموئيل الثاني	يونان
الملوك الأول	ميخا
الملوك الثاني	نحوم
إشعياء	حبقوق
إرمياء	صفنيه
إحزقيال	حجاي
هوسوع	زكرياء
يوئل	ملاخي

(*)- ذ. أحمد شحلان : أستاذ باحث جامعة محمد الخامس - الرباط

3 - أسفار الحكمة وتتكون من:

أخبار الأيام الأول
أخبار الأيام الثاني
المزامير
أيوب
أمثالٌ
رعوت
نشيد الأناشيد
الجامعة
إيخا
إستير
دانييل
عزرا
نحميا

ومضمون هذه الأسفار جميعها لا يعدو أن يكون تاريخاً أو تشريعاً. وبما أن يد الإنسان أضافت الكثير إلى هذه المدونة، كما سبق أن ألمحنا، فإن تشريع الشعوب القديمة وتواريخها تحتل مكاناً شاسعاً في النص، زيادة على ما أضافه بنو إسرائيل في الجانبين معاً، غير أنه في الجانب التاريخي الذي أضافوه، كثير من الخيال ومِمَّا كانوا يـأملون تحقيقه، ويعتبر تجاوزاً، جزءاً من التاريخ الفعلي لإمكان حدوثه، وعلى كل حال فهذا لا يؤثر في ما نرمي إليه في هذه القراءة التوراتية

ما ذا نقصد بحضارات «العهد القديم»؟

إذا كان العهد العتيق يتضمن تاريخاً كما رأينا، فمعناه أنه يؤرخ لحضارات عاصرت أحداثه، وامتدت على مدى جغرافي شاسع، كان يشمل أراضي شاسعة بدأت حدودها الأولى في أرض آشور حيث ولد إبراهيم في أور الكلدنين[1]، ومنها بدأت رحلته، صاعداً إلى حران، في الشمال الغربي من أرض العراق، ونزولا نحو الجنوب، ماراً بأراضي سوريا نحو أرض كنعان، ثم

1- سفر التكوين، 28/ 11.

انتقل منها إلى مصر ثم رجع إلى كنعان[1]. ثم توالت الأحداث في مدونة العهد العتيق، فشملت أحداثاً امتدت حتى بلاد فارس. وعليه فالحضارات المعنية هي حضارة العراق والشام على امتداده، ومصر ثم فارس التي تردد صداها في جملة الكتاب وخص لبعض تاريخها سفر كامل هو سفر إستير.

أما الامتداد الزمني فيبدأ من ما قبل إبراهيم الذي ولد في أور الكلدانين حوالي القرن التاسع عشر، ق. م. ويمتد حتى ما بعد النفي البابلي في القرن الساس ق. م.

فعلى هذا الامتداد الجغرافي والعهود الزمنية ترد أحداث الخيل والفرس في التوراة.

الحيوانات في العهد العتيق

خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام، وفي اليوم الخامس منها خلق الطيور والأسماك، وخلق في اليوم السادس الحيوان والإنسان :

« 24 وَقَالَ اللهُ: «لِتُخْرِجِ الأَرْضُ ذَوَاتِ أَنْفُسٍ حَيَّةٍ كَجِنْسِهَا: بَهَائِمَ، وَدَبَّابَاتٍ، وَوُحُوشَ أَرْضٍ كَأَجْنَاسِهَا». وَكَانَ كَذلِكَ. 25 فَعَمِلَ اللهُ وُحُوشَ الأَرْضِ كَأَجْنَاسِهَا، وَالْبَهَائِمَ كَأَجْنَاسِهَا، وَجَمِيعَ دَبَّابَاتِ الأَرْضِ كَأَجْنَاسِهَا. وَرَأَى اللهُ ذلِكَ أَنَّهُ حَسَنٌ. (تكوين 1: 25-24).

ولم تحدد أسماء لهذه الحيوانات. ولم يعين جنس الحيوان أول مرة إلا في قصة هابيل بن آدم، الذي كان يرعى الغنم:

«2 وَكَانَ هَابِيلُ رَاعِيًا لِلْغَنَمِ، وَكَانَ قَابِيل عَامِلاً فِي الأَرْضِ» (تكوين 4: 2).

ولم تعرف كذلك أصناف الحيوانات التي أخذها معه نوح على ظهر السفينة، فقد جاء ذكرها عاما:

1- لم تشر التوراة إلى رحلة إبراهيم إلى الجزيرة العربية ولا إلى وصول إسماعيل إليها، فد جاء فيها: « [14] فَبَكَّرَ إِبْرَاهِيمُ صَبَاحًا وَأَخَذَ خُبْزًا وَقِرْبَةَ مَاءٍ وَأَعْطَاهُمَا لِهَاجَرَ، وَاضِعًا إِيَّاهُمَا عَلَى كَتِفِهَا، وَالْوَلَدَ، وَصَرَفَهَا. فَمَضَتْ وَتَاهَتْ فِي بَرِّيَّةِ بِئْرِ سَبْعَ. [15] وَلَمَّا فَرَغَ الْمَاءُ مِنَ الْقِرْبَةِ طَرَحَتِ الْوَلَدَ تَحْتَ إِحْدَى الأَشْجَارِ، [16] وَمَضَتْ وَجَلَسَتْ مُقَابِلَهُ بَعِيدًا نَحْوَ رَمْيَةِ قَوْسٍ، لأَنَّهَا قَالَتْ: «لاَ أَنْظُرُ مَوْتَ الْوَلَدِ». فَجَلَسَتْ مُقَابِلَهُ وَرَفَعَتْ صَوْتَهَا وَبَكَتْ. [17] فَسَمِعَ اللهُ صَوْتَ الْغُلاَمِ، وَنَادَى مَلاَكُ الله هَاجَرَ مِنَ السَّمَاءِ وَقَالَ لَهَا: «مَا لَكِ يَا هَاجَرُ؟ لاَ تَخَافِي، لأَنَّ اللهَ قَدْ سَمِعَ لِصَوْتِ الْغُلاَمِ حَيْثُ هُوَ. [18] قُومِي احْمِلِي الْغُلاَمَ وَشُدِّي يَدَكِ بِهِ، لأَنِّي سَأَجْعَلُهُ أُمَّةً عَظِيمَةً». [19] وَفَتَحَ اللهُ عَيْنَيْهَا فَأَبْصَرَتْ بِئْرَ مَاءٍ، فَذَهَبَتْ وَمَلأَتِ الْقِرْبَةَ مَاءً وَسَقَتِ الْغُلاَمَ. [20] وَكَانَ اللهُ مَعَ الْغُلاَمِ فَكَبِرَ، وَسَكَنَ فِي الْبَرِّيَّةِ» (تكوين، 20-21/14).

«19 وَمِنْ كُلِّ حَيٍّ مِنْ كُلِّ ذِي جَسَدٍ، اثْنَيْنِ مِنْ كُلّ تُدْخِلُ إِلَى الْفُلْكِ لاسْتِبْقَائِهَا مَعَكَ. تَكُونُ ذَكَرًا وَأُنْثَى. 20 مِنَ الطُّيُورِ كَأَجْنَاسِهَا، وَمِنَ الْبَهَائِمِ كَأَجْنَاسِهَا، وَمِنْ كُلِّ دَبَّابَاتِ الأَرْضِ كَأَجْنَاسِهَا. اثْنَيْنِ مِنْ كُلّ تُدْخِلُ إِلَيْكَ لاسْتِبْقَائِهَا». (تكوين 6: 20).

ولم يذكر أي نوع من أنواع الحيوان في بدْء انطلاق هجرة إبراهيم من أور الكلدانين، فما كان معه هو مقتنيات لم يُشر فيها إلى حيوان:

« وَمِنْ كُلِّ حَيٍّ مِنْ كُلِّ ذِي جَسَدٍ، اثْنَيْنِ مِنْ كُلّ تُدْخِلُ إِلَى الْفُلْكِ لاسْتِبْقَائِهَا مَعَكَ. تَكُونُ ذَكَرًا وَأُنْثَى. 20 مِنَ الطُّيُورِ كَأَجْنَاسِهَا، وَمِنَ الْبَهَائِمِ كَأَجْنَاسِهَا، وَمِنْ كُلِّ دَبَّابَاتِ الأَرْضِ كَأَجْنَاسِهَا. اثْنَيْنِ مِنْ كُلّ تُدْخِلُ إِلَيْكَ لاسْتِبْقَائِهَا». (تكوين 6: 20).

ولم يرد ذكر لحيوان كان يملكه حتى هجرته أرض كنعان بعد مجاعة، حيث هاجر إلى مصر. فكان ضمن ما أهداه ملكها :

«15 ... غَنَمٌ وَبَقَرٌ وَحَمِيرٌ وَعَبِيدٌ وَإِمَاءٌ وَأُتُنٌ وَجِمَالٌ» (تكوين، 12 : 15).

وقد جمع إبراهيم في مصر ثروة كثيرة، إذ تسجل التوراة أنه عندما غادر مصر، كان:
«2 ... غَنِيًّا جِدًّا فِي الْمَوَاشِي وَالْفِضَّةِ وَالذَّهَبِ» (تكوين، 13: 2)، فاستثمرها في منطقة غنية شاسعة كان مركزها حِبْرون أو الخليل.
كما أن لوطاً ابن أخيه كان يملك غنماً وبقراً فاستثمرها في غور الأردن.

وكما أهدى ملكُ مصر إبراهيمَ حيوانات، كذا فعل أبيملك، ملك جرار (النقب)، الذي أهداه «غَنَمًا وَبَقَرًا وَعَبِيدًا وَإِمَاءً» مع ألف قطعة من الفضة (نفسه، 15-20/14). وفي الميثاق الذي وقعاه بينهما قدم إبراهيمُ أيضاً لأبيملك «غَنَمًا وَبَقَرًا»، مصادقة على الميثاق. (نفسه، 28-27/ 21).

وتمثلت ثروة ولد إبراهيم إسحاق في نفس النوع من الحيوان:
«13 فَتَعَاظَمَ الرَّجُلُ وَكَانَ يَتَزَايَدُ فِي التَّعَاظُمِ حَتَّى صَارَ عَظِيمًا جِدًّا. 14 فَكَانَ لَهُ مَوَاشٍ مِنَ الْغَنَمِ وَمَوَاشٍ مِنَ الْبَقَرِ وَعَبِيدٌ كَثِيرُونَ. (نفسه، 26).

وتظل الأغنام والأبقار والمعز هي الثروة السائدة في نسل إبراهيم في كنعان، وهي السبب في نزاعاتهم الداخلية[1]، فهذه ترافق يعقوب في رحلته إلى مدينة حاران، ولا يشتغل الرعاة إلا بها، وترافقه في مدينة سكوت وشكيم[2]. وهي ثروة أخيه عيسو. وأبناء يعقوب يوسف وإخوته يرعون الأغنام[3]. وعندما دعا يوسف أباه وإخوته للاستقرار في منطقة جاسان في مصر، لم يكن لهم من المتاع إلا الغنم والبقر[4]، بل كانت هي مهنتهم ومهنة آبائهم، كما جاء على لسانهم:

« 34.. عبيدك أهل مواش منذ صبانا إلى الآن نحن وآباؤنا جميعا»[5].

وكان بالإمكان أن تسبب لهم هذه المهنة حرجاً كبيراً «لأن كل راعي غنم نجس لدى المصريين»، ولو لم يكن في الشأن أمر من يوسف لتعذر عليهم دخولهم ودخول مواشيهم. وغير بعيد أن يكون وجودهم في مصر هو السبب في تغيير النظر في مهنة الرعي، لأن فرعون كلفهم برعاية ماشيته الخاصة[6].

الجمل

استعملت الجمال في عهد إبراهيم في بلاد كنعان وسيلة للنقل والأحمال، إذ عندما كلف إبراهيمُ عبدَه للبحث عن زوجة لابنه إسحاق في موطنه الأصلي، حمَّل عبدُه «عَشَرَةَ جِمَالٍ بالهدايا». وتُحمل العروس ووصيفاتها من رباع أبيها إلى رباع زوجها إسحق أيضاً على الجمال[7]. وعندما فارق يعقوب بيت صهره حمل أولاده ونساءه على الجمال (تكوين، 31 /17).

من كل ما تقدم لا نعثر على أثر للفرس منذ خروج إبراهيم من أور الكلدانيين وخلال رحلته حتى استقراره في أرض كنعان (فلسطين).

1- نفسه،7-13/8، و32/39.
2- تكوين 4-29/2، و30/29-30. و33/13 و17
3- نفسه، 36/6 و8، و37/....
4- (نفسه، 45/10)
5- نفسه، 34-46/32.
6- (نفسه، 46/34) (نفسه 47/6).
7- نفسه، 24/10، ونفسه، 61/10.

وما كان الفرس غريباً عن منطقة ما بين النهرين، فقد ورد نص في سفر أيوب، الذي يؤرخ لفترة تمتد بين 2000 ق.م و1800 ق.م، والذي يسترجع ذكريات عن هذه المنطقة وينقل جزءاً من آدابها، يصف الفرس جسماً ونفساً، هو وصف يدل على معرفة جيدة بهذا الحيوان وبخبايا نفسه، يقول النص:

« 19 هَلْ أَنْتَ تُعْطِي الْفَرَسَ قُوَّتَهُ وَتَكْسُو عُنُقَهُ عُرْفًا؟ 20 أَتُوثِبُهُ كَجَرَادَةٍ؟ نَفْخُ مِنْخَرِهِ مُرْعِبٌ. 21 يَبْحَثُ فِي الْوَادِي وَيَنْفِزُ بِبَأْسٍ. يَخْرُجُ لِلِقَاءِ الأَسْلِحَةِ. 22 يَضْحَكُ عَلَى الْخَوْفِ وَلاَ يَرْتَاعُ، وَلاَ يَرْجِعُ عَنِ السَّيْفِ. 23 عَلَيْهِ تَصِلُّ السِّهَامُ وَسِنَانُ الرُّمْحِ وَالْمِزْرَاقِ. 24 فِي وَثْبِهِ وَرُجْزِهِ يَلْتَهِمُ الأَرْضَ، وَلاَ يُؤْمِنُ أَنَّهُ صَوْتُ الْبُوقِ. 25 عِنْدَ نَفْخِ الْبُوقِ يَقُولُ: هَهْ! وَمِنْ بَعِيدٍ يَسْتَرْوِحُ الْقِتَالَ صِيَاحَ الْقُوَّادِ وَالْهُتَافَ.(أيوب، 39).

ومع ذلك لا نجد للخيول أثراً حتى حيث تستدعي الظروف، أي أثناء الحروب والمعارك.

حرب الملوك

فقريباً من هذا الوقت التي بدأ فيها إبراهيم رحلته، حدثت حروب بين تسعة ملوك، أي بين تسعة مدن، إذ النظام الشائع إذ ذاك، كان هو المدن الدولة، ولم يُشر إلى وجود الخيل في هذه الحروب، ولعل الذي جعلهم لا يفكرون في جلب الخيول أو استعمالها، لو كانت موجودة، هو طريقة الحروب التي كانت تعتمد النيران في المعارك، إذ ما كان بالإمكان استعمال الفرس في معارك تكون فيها النيران هي الحاسمة[1]. وأُسر في هذه المعارك لوطٌ ابنُ أخي إبراهيم، فجند هذا الأخير « غِلْمَانَهُ الْمُتَمَرِّنِينَ، وِلْدَانَ بَيْتِهِ، ثَلاَثَ مِائَةٍ وَثَمَانِيَةَ عَشَرَ»، وتدل السياق على أنهم لم يستعينوا بحيوانات ولا بخيول. (نفسه، 14).

1 «[1] وَحَدَثَ فِي أَيَّامِ أَمْرَافَلَ مَلِكِ شِنْعَارَ، وَأَرْيُوكَ مَلِكِ أَلاَّسَارَ، وَكَدَرْلَعَوْمَرَ مَلِكِ عِيلاَمَ، وَتِدْعَالَ مَلِكِ جُوييمَ، [2] أَنَّ هؤُلاَءِ صَنَعُوا حَرْبًا مَعَ بَارَعَ مَلِكِ سَدُومَ، وَبِرْشَاعَ مَلِكِ عَمُورَةَ، وَشِنْآبَ مَلِكِ أَدْمَةَ، وَشَمْئِيبَرَ مَلِكِ صَبُوييمَ، وَمَلِكِ بَالَعَ الَّتِي هِيَ صُوغَرُ. [3] جَمِيعُ هؤُلاَءِ اجْتَمَعُوا مُتَعَاهِدِينَ إِلَى عُمْقِ السِّدِّيمِ الَّذِي هُوَ بَحْرُ الْمِلْحِ. [4] اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً اسْتُعْبِدُوا لِكَدَرْلَعَوْمَرَ، وَالسَّنَةَ الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ عَصَوْا عَلَيْهِ. [5] وَفِي السَّنَةِ الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ أَتَى كَدَرْلَعَوْمَرُ وَالْمُلُوكُ الَّذِينَ مَعَهُ وَضَرَبُوا الرَّفَائِيِّينَ فِي عَشْتَارُوثَ قَرْنَايِمَ، وَالزُّوزِيِّينَ فِي هَامَ، وَالإِيمِيِّينَ فِي شَوَى قَرْيَتَايِمَ، [6] وَالْحُورِيِّينَ فِي جَبَلِهِمْ سَعِيرَ إِلَى بُطْمَةِ فَارَانَ الَّتِي عِنْدَ الْبَرِّيَّةِ. [7] ثُمَّ رَجَعُوا وَجَاءُوا إِلَى عَيْنِ مِشْفَاطَ الَّتِي هِيَ قَادِشُ. وَضَرَبُوا كُلَّ بِلاَدِ الْعَمَالِقَةِ، وَأَيْضًا الأَمُورِيِّينَ السَّاكِنِينَ فِي حَصَّونَ تَامَارَ. [8] فَخَرَجَ مَلِكُ سَدُومَ، وَمَلِكُ عَمُورَةَ، وَمَلِكُ أَدْمَةَ، وَمَلِكُ صَبُوييمَ، وَمَلِكُ بَالَعَ، الَّتِي هِيَ صُوغَرُ، وَنَظَمُوا حَرْبًا مَعَهُمْ فِي عُمْقِ السِّدِّيمِ. [9] مَعَ كَدَرْلَعَوْمَرَ مَلِكِ عِيلاَمَ، وَتِدْعَالَ مَلِكِ جُوييمَ، وَأَمْرَافَلَ مَلِكِ شِنْعَارَ، وَأَرْيُوكَ مَلِكِ أَلاَّسَارَ. أَرْبَعَةُ مُلُوكٍ مَعَ خَمْسَةٍ. [10] وَعُمْقُ السِّدِّيمِ كَانَ فِيهِ آبَارُ حُمَرٍ كَثِيرَةٌ. فَهَرَبَ مَلِكَا سَدُومَ وَعَمُورَةَ وَسَقَطَا هُنَاكَ، وَالْبَاقُونَ هَرَبُوا إِلَى الْجَبَلِ. [11] فَأَخَذُوا جَمِيعَ أَمْلاَكِ سَدُومَ وَعَمُورَةَ وَجَمِيعَ أَطْعِمَتِهِمْ وَمَضَوْا. [12] وَأَخَذُوا لُوطاً ابْنَ أَخِي أَبْرَامَ وَأَمْلاَكَهُ وَمَضَوْا، إِذْ كَانَ سَاكِنًا فِي سَدُومَ. (تكوين، 14).

العربة والفرس

وتُذكر العربة أول مرة عندما صالح يوسفُ إخوتـه (عاش يوسف حوالي 1730 ق. م)، إذ أرسل معهم عربات لتحمل أباه ومن معه:

«21 ... وَأَعْطَاهُمْ يُوسُفُ عَجَلاَتٍ بِحَسَبِ أَمْرِ فِرْعَوْنَ.... 23 وَأَرْسَلَ لأَبِيهِ هكَذَا: عَشَرَةَ حَمِيرٍ حَامِلَةٍ مِنْ خَيْرَاتِ مِصْرَ، وَعَشَرَ أُتُنٍ حَامِلَةٍ حِنْطَةً، وَخُبْزًا وَطَعَامًا لأَبِيهِ لأَجْلِ الطَّرِيقِ... 27 ثُمَّ كَلَّمُوهُ بِكُلِّ كَلاَمِ يُوسُفَ الَّذِي كَلَّمَهُمْ بِهِ، وَأَبْصَرَ الْعَجَلاَتِ الَّتِي أَرْسَلَهَا يُوسُفُ لِتَحْمِلَهُ...» (نفسه، 45). و (46/5)

ويوسف نفسه يستقبل أباه على عربة (نفسه، 29). ولم يذكر الفرس باللفظ، مع أن العربة لا يمكن أن تكون بدون فرس. وأول مرة ذكر فيها الفرس في العهد العتيق باللفظ، وردت في آخر سفر التكوين، حيث نفذت الفضة التي كان يقايض بها يوسف القمح في مصر:

«فَأَعْطَاهُمْ يُوسُفُ خُبْزًا بِالْخَيْلِ وَبِمَوَاشِي الْغَنَمِ وَالْبَقَرِ وَبِالْحَمِيرِ» (التكوين 17-47/16).

ولم يرد اسم الفرس على لسان يعقوب أبي يوسف، في كل المشاهد التي مرت عليه وهو في كنعان، ولم يذكره إلا في آخر حياته، عند مباركته لأبنائه حيث قال:

«17 يَكُونُ دَانُ (اسم أحد أبنائه) حَيَّةً عَلَى الطَّرِيقِ، أُفْعُوانًا عَلَى السَّبِيلِ، يَلْسَعُ عَقِبَيِ الْفَرَسِ فَيَسْقُطُ رَاكِبُهُ إِلَى الْوَرَاءِ. 18 لِخَلاَصِكَ انْتَظَرْتُ يَا رَبُّ». (تكوين، 49/17).

عهود موسى

وبموت يوسف وتغيير الأسرة الحاكمة في مصر، يسكت التأريخ عن العبرانيين، حوالي 450 سنة، أي حتى مولد موسى (1526 ق. م.)[1]، وعندها يصبح الفرس الحيوان البارز. فعندما رفض فرعون (رمسيس الثاني 1234-1301 ق. م) إطلاق بني إسرائيل مع موسى، هدده موسى بالدعاء على خيله:

1- هذا افتراض لم تؤيده الكشوف الأركيوليوجية الحديثة، رغم اعتماد الدراسات التوراتية التقليدية عليه، والمفترض أن موسى لم يولد إلا بعد هذا التاريخ بكثير. أنظر لغات الرسل وأصول الرسالات، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، مطبعة المعارف الجديدة، 1423هـ/2002، ص.45.

« 2 فَإِنَّهُ إِنْ كُنْتَ تَأْبَى أَنْ تُطْلِقَهُمْ وَكُنْتَ تُمْسِكُهُمْ بَعْدُ، 3 فَهَا يَدُ الرَّبِّ تَكُونُ عَلَى مَوَاشِيكَ الَّتِي فِي الْحَقْلِ، عَلَى الْخَيْلِ وَالْحَمِيرِ وَالْجِمَالِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ، وَبَأٌ ثَقِيلاً جِدًّا». (الخروج، 9/2).
وعند ما فر موسى وأصحابه، كانت الخيل هي وسيلة الملاحقة:

«9 فَسَعَى الْمِصْرِيُّونَ وَرَاءَهُمْ وَأَدْرَكُوهُمْ. جَمِيعُ خَيْلِ مَرْكَبَاتِ فِرْعَوْنَ وَفُرْسَانِهِ وَجَيْشِهِ، وَهُمْ نَازِلُونَ عِنْدَ الْبَحْرِ عِنْدَ فَمِ الْحِيرُوثِ، أَمَامَ بَعْلَ صَفُونَ. (الخروج، 14/9). 23 وَتَبِعَهُمُ الْمِصْرِيُّونَ وَدَخَلُوا وَرَاءَهُمْ. جَمِيعُ خَيْلِ فِرْعَوْنَ وَمَرْكَبَاتِهِ وَفُرْسَانِهِ إِلَى وَسَطِ الْبَحْرِ...» (الخروج، 14/23).

وكان انتقام الرب لبني إسرائيل بإغراق خيل فرعون:
« 19 فَإِنَّ خَيْلَ فِرْعَوْنَ دَخَلَتْ بِمَرْكَبَاتِهِ وَفُرْسَانِهِ إِلَى الْبَحْرِ، وَرَدَّ الرَّبُّ عَلَيْهِمْ مَاءَ الْبَحْرِ». (الخروج، 15/19).

وبغرق الخيل تغنت مريم أخت موسى:
«20 فَأَخَذَتْ مَرْيَمُ النَّبِيَّةُ أُخْتُ هَارُونَ الدُّفَّ بِيَدِهَا، وَخَرَجَتْ جَمِيعُ النِّسَاءِ وَرَاءَهَا بِدُفُوفٍ وَرَقْصٍ. 21 وَأَجَابَتْهُمْ مَرْيَمُ: «رَنِّمُوا لِلرَّبِّ فَإِنَّهُ قَدْ تَعَظَّمَ. الْفَرَسَ وَرَاكِبَهُ طَرَحَهُمَا فِي الْبَحْرِ». (الخروج، 15/20-21).

وصار حادث إغراق الخيل من معجزات الرب:
«20 فَأَخَذَتْ مَرْيَمُ النَّبِيَّةُ أُخْتُ هَارُونَ الدُّفَّ بِيَدِهَا، وَخَرَجَتْ جَمِيعُ النِّسَاءِ وَرَاءَهَا بِدُفُوفٍ وَرَقْصٍ. 21 وَأَجَابَتْهُمْ مَرْيَمُ: «رَنِّمُوا لِلرَّبِّ فَإِنَّهُ قَدْ تَعَظَّمَ. الْفَرَسَ وَرَاكِبَهُ طَرَحَهُمَا فِي الْبَحْرِ». (الخروج، 15/20-21).

الفرس في كنعان

رأينا في الفقرة التي تحدثنا فيها عن رحلة إبراهيم حتى مجيئ يعقوب إلى أرض مصر، غياب ذكر الفرس في نصوص العهد العتيق، ولعل استعمال الفرس في ملاحقة موسى وصحبه جعل هذا الحيوان غير مقبول بعد استقرار العبريين في كنعان بعد رسالة موسى، فمن وصايا الرب إليهم أن لا يكثروا من الخيل بعد قيام مَـلَـكيتهم:

«15 فَإِنَّكَ تَجْعَلُ عَلَيْكَ مَلِكًا الَّذِي يَخْتَارُهُ الرَّبُّ إِلهُكَ. مِنْ وَسَطِ إِخْوَتِكَ تَجْعَلُ عَلَيْكَ مَلِكًا. لاَ يَحِلُّ لَكَ أَنْ تَجْعَلَ عَلَيْكَ رَجُلاً أَجْنَبِيًّا لَيْسَ هُوَ أَخَاكَ. 16 وَلكِنْ لاَ يُكَثِّرْ لَهُ الْخَيْلَ، وَلاَ يَرُدَّ الشَّعْبَ إِلَى مِصْرَ لِكَيْ يُكَثِّرَ الْخَيْلَ، وَالرَّبُّ قَدْ قَالَ لَكُمْ: لاَ تَعُودُوا تَرْجِعُونَ فِي هذِهِ الطَّرِيقِ أَيْضًا. 17 وَلاَ يُكَثِّرْ لَهُ نِسَاءً لِئَلاَّ يَزِيغَ قَلْبُهُ. وَفِضَّة وَذَهَبًا لاَ يُكَثِّرْ لَهُ كَثِيرًا». (التثنية، 17/..16)
بل والتقليل في هذه المراحل الأولى من شأن الخيل :

«1 إِذَا خَرَجْتَ لِلْحَرْبِ عَلَى عَدُوِّكَ وَرَأَيْتَ خَيْلاً وَمَرَاكِبَ، قَوْمًا أَكْثَرَ مِنْكَ، فَلاَ تَخَفْ مِنْهُمْ، لأَنَّ مَعَكَ الرَّبَّ إِلهَكَ الَّذِي أَصْعَدَكَ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ ». (التثنية، 20/1).

وظلت الحيطة من الفرس أمراً قائماً في المقبل من تاريخ بني إسرائيل، ولعل هذه الحيطة أتت من علاقة الفرس بعهود الوثنية، كما يعبر عن ذلك نص ورد في زمن متأخر عن الفترة التي نحن بصددها، فقد ورد:

«5 يَا بَيْتَ يَعْقُوبَ، هَلُمَّ فَنَسْلُكُ فِي نُورِ الرَّبِّ. 6 فَإِنَّكَ رَفَضْتَ شَعْبَكَ بَيْتَ يَعْقُوبَ لأَنَّهُمُ امْتَلأُوا مِنَ الْمَشْرِقِ، وَهُمْ عَائِفُونَ كَالْفِلِسْطِينِيِّينَ، وَيُصَافِحُونَ أَوْلاَدَ الأَجَانِبِ. 7 وَامْتَلأَتْ أَرْضُهُمْ فِضَّةً وَذَهَبًا وَلاَ نِهَايَةَ لِكُنُوزِهِمْ، وَامْتَلأَتْ أَرْضُهُمْ خَيْلاً وَلاَ نِهَايَةَ لِمَرْكَبَاتِهِمْ. 8 وَامْتَلأَتْ أَرْضُهُمْ أَوْثَانًا. يَسْجُدُونَ لِعَمَلِ أَيْدِيهِمْ لِمَا صَنَعَتْهُ أَصَابِعُهُمْ. 9 وَيَنْخَفِضُ الإِنْسَانُ، وَيَنْطَرِحُ الرَّجُلُ، فَلاَ تَغْفِرْ لَهُمْ». (إشعياء، 2).

في حين أن جيرانهم كانوا يعتمدون الخيول في حروبهم، كما يتضح من الحلف الذي أقامه ملوك الشمال ضد يشوع الذي دخل ببني إسرائيل أرض كنعان بعد موت موسى، ولعل هؤلاء كانوا يستعملون المركبات، لأنهم هزموا أمام جيش يشوع، وتُعزى هزيمتهم إلى الغابات الكثيفة التي كانت في المنطقة وصعوبة تحرك الفرس أو العربات:

«4 فَخَرَجُوا [ملوك كنعان والأموريين والحثيين والفريزيين واليبوسيين]هُمْ وَكُلُّ جُيُوشِهِمْ مَعَهُمْ...، بِخَيْلٍ وَمَرْكَبَاتٍ كَثِيرَةٍ جِدًّا. ... فَقَالَ الرَّبُّ لِيَشُوعَ: «لاَ تَخَفْهُمْ، لأَنِّي غَدًا فِي مِثْلِ هذَا الْوَقْتِ أَدْفَعُهُمْ جَمِيعًا قَتْلَى...، فَتُعَرْقِبُ خَيْلَهُمْ، وَتُحْرِقُ مَرْكَبَاتِهِمْ بِالنَّارِ». 7 فَجَاءَ يَشُوعُ وَجَمِيعُ رِجَالِ الْحَرْبِ مَعَهُ ... 9 فَفَعَلَ يَشُوعُ بِهِمْ كَمَا قَالَ لَهُ الرَّبُّ. عَرْقَبَ خَيْلَهُمْ، وَأَحْرَقَ مَرْكَبَاتِهِمْ بِالنَّارِ...» (يشوع، 11/1).

واستمرت المعارك بين بني إسرائيل وأهل الأرض، كما حدث مع مؤاب وعمون وعماليق وحاصور التي كان على رأس جيشها سيسرا صاحب المائة مركبة حديدية (قضاة، 3/4) (900 مركبة 13/4)، وقد انهزم سيسرا، وربما لنفس السبب الذي انهزم به الحلف السابق. وواضح أن العبرانيين لم يكن لهم أيام القضاة (1375ق.م 1050-ق.م) تنظيم عسكري، ولم يستعملوا في كل هذه المواجهات خيولا، فلم «تشاهد معهم تروس أو رماح» (قضاة، 5/8). وكيف ما كان الحال، فإن التغني بهزيمة الخيل، يدل على هذه المواجهة غير المتكافئة، حيث تغنت دبورا.

لم يَرد ما يتحدث عن الخيل في كنعان العبرية، أيام حكم القضاة، وكذا في بدأ فترة الملكية (شاؤول تولى ملكاً سنة 1050 ق. م). وداود (1010 ق. م)، على الرغم من كثرة الحروب الداخلية والخارجية، ويفهم من النصوص أن المناوشات والمعارك كانت تجري بأعداد كبيرة بين العبرانيين والكنعانيين (صموئل الأول، 13/5)، وفي الكثير منها انتصر العبرانيون بطرق غير عسكرية، بما في ذلك انتصار داود على الفلسطينيين، أو غاراته الخيالية، كما يظهر، ولم يكن للفرس فيهم بأس إلا في حكم سليمان. (صموئل الأول، 27/ ...و28/... و29/).

سليمان

وطد داود الحكم لسليمان، ومعه رُتَّبتْ الجيوش واحتل الفرس مكانة في نظام الدولة وتدبيرها، إذ كان يملك سليمان:

« أَرْبَعُينَ أَلْفَ مِذْوَدٍ لِخَيْلِ مَرْكَبَاتِهِ، وَاثْنَي عَشَرَ أَلْفَ فَارِسٍ».
وكان له وكلاء «28 يَأْتُونَ بِشَعِيرٍ وَتِبْنٍ لِلْخَيْلِ وَالْجِيَادِ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ، كُلٌّ وَاحِدٍ حَسَبَ قَضَائِهِ» (م 1، 4/...) (الملوك الأول، 24/10).

وكان سليمان يستورد الخيول من مصر:

«16 وَكَانَ مُخْرَجُ الْخَيْلِ الَّتِي لِسُلَيْمَانَ مِنْ مِصْرَ. وَجَمَاعَةُ تُجَّارِ الْمَلِكِ أَخَذُوا جَلِيبَةً بِثَمَنٍ، 17 فَأَصْعَدُوا وَأَخْرَجُوا مِنْ مِصْرَ الْمَرْكَبَةَ بِستِّ مِئَةِ شَاقِلٍ مِنَ الْفِضَّةِ، وَالْفَرَسَ بِمِئَةٍ وَخَمْسِينَ، وَهكَذَا لِجَمِيعِ مُلُوكِ الْحِثِّيِّينَ وَمُلُوكِ أَرَامَ كَانُوا يُخْرِجُونَ عَنْ يَدِهِمْ». (أخبار الأيام الثاني، 1/).

وكانت الهدايا المقدمة إليه أيضاً من الخيول:

«23 وَكَانَ جَمِيعُ مُلُوكِ الأَرْضِ يَلْتَمِسُونَ وَجْهَ سُلَيْمَانَ لِيَسْمَعُوا حِكْمَتَهُ الَّتِي جَعَلَهَا اللهُ فِي قَلْبِهِ. 24 وَكَانُوا يَأْتُونَ كُلُّ وَاحِدٍ بِهَدِيَّتِهِ، بِآنِيَةِ فِضَّةٍ وَآنِيَةِ ذَهَبٍ وَحُلَلٍ وَسِلاَحٍ وَأَطْيَابٍ وَخَيْلٍ وَبِغَالٍ سَنَةً فَسَنَةً.25 وَكَانَ لِسُلَيْمَانَ أَرْبَعَةُ آلاَفِ مِذْوَدِ خَيْلٍ وَمَرْكَبَاتٍ، وَاثْنَا عَشَرَ أَلْفَ فَارِسٍ، فَجَعَلَهَا فِي مُدُنِ الْمَرْكَبَاتِ وَمَعَ الْمَلِكِ فِي أُورُشَلِيمَ. ... 28 وَكَانَ مُخْرَجُ خَيْلِ سُلَيْمَانَ مِنْ مِصْرَ وَمِنْ جَمِيعِ الأَرَاضِي». (أخبار الأيام الثاني، 9/).

ومع ملك سليمان (970 ق. م) وحتى الرجوع من النفي البابلي، احتل الفرس مكانته في كل جوانب العيش. ولأهمية الفرس، جلب المسبيون معهم عند عودتهم من بابل خيولا كثيرة:

«64 كُلُّ الْجُمْهُورِ مَعًا اثْنَانِ وَأَرْبَعُونَ أَلْفًا وَثَلاَثُ مِئَةٍ وَسِتُّونَ، 65 فَضْلاً عَنْ عَبِيدِهِمْ وَإِمَائِهِمْ فَهؤُلاَءِ كَانُوا سَبْعَةَ آلاَفٍ وَثَلاَثَ مِئَةٍ وَسَبْعَةً وَثَلاَثِينَ، وَلَهُمْ مِنَ الْمُغَنِّينَ وَالْمُغَنِّيَاتِ مِئَتَانِ. 66 خَيْلُهُمْ سَبْعُ مِئَةٍ وَسِتَّةٌ وَثَلاَثُونَ. بِغَالُهُمْ مِئَتَانِ وَخَمْسَةٌ وَأَرْبَعُونَ. 67 جِمَالُهُمْ أَرْبَعُ مِئَةٍ وَخَمْسَةٌ وَثَلاَثُونَ. حَمِيرُهُمْ سِتَّةُ آلاَفٍ وَسَبْعُ مِئَةٍ وَعِشْرُونَ». (عزرا، 2/)

مصارت الخيل تستعمل في المعيش اليومي ولا يستغنى عنها ويُتَوَسَّل للرب لحفظها:

". 5 وَقَالَ أَخْآبُ لِعُوبَدْيَا: «اذْهَبْ فِي الأَرْضِ إِلَى جَمِيعِ عُيُونِ الْمَاءِ وَإِلَى جَمِيعِ الأَوْدِيَةِ، لَعَلَّنَا نَجِدُ عُشْبًا فَنُحْيِيَ الْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَلاَ نُعْدَمَ الْبَهَائِمَ كُلَّهَا (الملوك الأول، 18/ 1...).

وأصبحت من خاصة المعبودات، حيث جعلها سكان يهودا الذين رجعوا إلى الوثنية من خاصة إله الشمس، حتى قضى على ذلك الملك يوشيا في إصلاحه الديني:

"11 وَأَبَادَ الْخَيْلَ الَّتِي أَعْطَاهَا مُلُوكُ يَهُوذَا لِلشَّمْسِ عِنْدَ مَدْخَلِ بَيْتِ الرَّبِّ عِنْدَ مُخْدَعِ نَثْنَمْلَكَ الْخَصِيِّ الَّذِي فِي الأَرْوِقَةِ، وَمَرْكَبَاتُ الشَّمْسِ أَحْرَقَهَا بِالنَّارِ". (الملوك الثاني، 23/).

واستعملت الخيل في الحروب ضد إسرائيل:

" وَجَمَعَ بَنْهَدَدُ مَلِكُ أَرَامَ كُلَّ جَيْشِهِ، وَاثْنَيْنِ وَثَلاَثِينَ مَلِكًا مَعَهُ، وَخَيْلاً وَمَرْكَبَاتٍ وَصَعِدَ وَحَاصَرَ السَّامِرَةَ وَحَارَبَهَا» (الملوك الأول، 20/ 1...).

واعتبرت جزءاً من الاتفاقيات العسكرية:

"4 وَكَانَ مِيشَعُ مَلِكُ مُوآبَ صَاحِبَ مَوَاشٍ، فَأَدَّى لِمَلِكِ إِسْرَائِيلَ مِئَةَ أَلْفِ خَرُوفٍ وَمِئَةَ أَلْفِ كَبْشٍ بِصُوفِهَا. 5 وَعِنْدَ مَوْتِ أَخْآبَ عَصَى مَلِكُ مُوآبَ عَلَى مَلِكِ إِسْرَائِيلَ. 6 وَخَرَجَ الْمَلِكُ يَهُورَامُ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ مِنَ السَّامِرَةِ وَعَدَّ كُلَّ إِسْرَائِيلَ. 7 وَذَهَبَ وَأَرْسَلَ إِلَى يَهُوشَافَاطَ مَلِكِ يَهُوذَا يَقُولُ: «قَدْ عَصَى عَلَيَّ مَلِكُ مُوآبَ. فَهَلْ تَذْهَبُ مَعِي إِلَى مُوآبَ لِلْحَرْبِ؟» فَقَالَ: «أَصْعَدُ. مَثَلِي مَثَلُكَ. شَعْبِي كَشَعْبِكَ وَخَيْلِي كَخَيْلِكَ (الملوك الثاني، 4/3...).

"1 وَأَقَامُوا ثَلاَثَ سِنِينَ بِدُونِ حَرْبٍ بَيْنَ أَرَامَ وَإِسْرَائِيلَ. 2 وَفِي السَّنَةِ الثَّالِثَةِ نَزَلَ يَهُوشَافَاطُ مَلِكُ يَهُوذَا إِلَى مَلِكِ إِسْرَائِيلَ. 3 فَقَالَ مَلِكُ إِسْرَائِيلَ لِعَبِيدِهِ: «أَتَعْلَمُونَ أَنَّ رَامُوتَ جِلْعَادَ لَنَا وَنَحْنُ سَاكِتُونَ عَنْ أَخْذِهَا مِنْ يَدِ مَلِكِ أَرَامَ؟» 4 وَقَالَ لِيَهُوشَافَاطَ: «أَتَذْهَبُ مَعِي لِلْحَرْبِ إِلَى رَامُوتَ جِلْعَادَ؟» فَقَالَ يَهُوشَافَاطُ لِمَلِكِ إِسْرَائِيلَ: «مَثَلِي مَثَلُكَ. شَعْبِي كَشَعْبِكَ، وَخَيْلِي كَخَيْلِكَ (الملوك الأول، 1/22...).

وكانت الخيل أداة هجوم من خارج، كما فعل نبوخذنصر الآشوري حين هاجم مدينة صور. وكانت صور عاصمة فنيقيا شمالي إسرائيل. وكانت تتنافس ويهودا (مملكة الجنوب) على التجارة المربحة القادمة من مصر جنوباً، والمارة بأرضيهما شمالا إلى بلاد ما بين النهرين. وبذلك سيطرت صور على طرق التجارة البحرية وسيطرت يهودا على طرق القوافل. فاضطر نبوخذنصر إلى مهاجمة مدينة صور بالخيل سنة 586 ق. م. (حزقيال 26). (الملوك الثاني، 9/). (الملوك الثاني، 18/).

ولم تكن الخيل أداة حرب وحسب، بل أشركتها الحضارات القديمة في العظيم من الأعمال وفي الصغير، وروجت بها ي أسواقها من ذلك:

مقايضة السلع بالخيول في صور

إذ وردت في سفر حزقيال صورة من حياة الناس في هذا الشرق القديم، حيث كانت الخيول، محركاً اقتصادياً ذا بال، وورد ذلك في ندب مدينة صور والتذكير بقوتها وجيوشها وغناها

وأحلافها وأنها كانت مركزا بحريا تجاريا، يأتون إليه من فارس ولود وفوط لينخرطوا في جيشها:

«11 بَنُو إِرْوَادَ مَعَ جَيْشِكِ عَلَى الأَسْوَارِ مِنْ حَوْلِكِ، وَالأَبْطَالِ كَانُوا فِي بُرُوجِكِ. عَلَّقُوا أَتْرَاسَهُمْ عَلَى أَسْوَارِكِ مِنْ حَوْلِكِ. هُمْ تَمَّمُوا جَمَالَكِ. 12 تَرْشِيشُ تَاجِرَتُكِ بِكَثْرَةِ كُلِّ غِنًى. بِالْفِضَّةِ وَالْحَدِيدِ وَالْقَصْدِيرِ وَالرَّصَاصِ أَقَامُوا أَسْوَاقَكِ. 13 يَاوَانُ وَتُوبَالُ وَمَاشِكُ هُمْ تُجَّارُكِ. بِنُفُوسِ النَّاسِ وَبِآنِيَةِ النُّحَاسِ أَقَامُوا تِجَارَتَكِ. 14 وَمِنْ بَيْتِ تُوجَرْمَةَ بِالْخَيْلِ وَالْفُرْسَانِ وَالْبِغَالِ أَقَامُوا أَسْوَاقَكِ. 15 بَنُو دَدَانَ تُجَّارُكِ. جَزَائِرُ كَثِيرَةٌ تُجَّارُ يَدِكِ. أَدَّوْا هَدِيَّتَكِ قُرُونًا مِنَ الْعَاجِ وَالآبْنُوسِ. 16 أَرَامُ تَاجِرَتُكِ بِكَثْرَةِ صَنَائِعِكِ، تَاجَرُوا فِي أَسْوَاقِكِ بِالْبَهْرَمَانِ وَالأُرْجُوانِ وَالْمُطَرَّزِ وَالْبُوصِ وَالْمَرْجَانِ وَالْيَاقُوتِ. 17 يَهُوذَا وَأَرْضُ إِسْرَائِيلَ هُمْ تُجَّارُكِ. تَاجَرُوا فِي سُوقِكِ بِحِنْطَةِ مِنِّيتَ وَحَلاَوَى وَعَسَلٍ وَزَيْتٍ وَبَلَسَانٍ. 18 دِمَشْقُ تَاجِرَتُكِ بِكَثْرَةِ صَنَائِعِكِ وَكَثْرَةِ كُلِّ غِنًى، بِخَمْرِ حَلْبُونَ وَالصُّوفِ الأَبْيَضِ. 19 وَدَانُ وَيَاوَانُ قَدَّمُوا غَزْلاً فِي أَسْوَاقِكِ. حَدِيدٌ مَشْغُولٌ وَسَلِيخَةٌ وَقَصَبُ الذَّرِيرَةِ كَانَتْ فِي سُوقِكِ. 20 دَدَانُ تَاجِرَتُكِ بِطَنَافِسَ لِلرُّكُوبِ. 21 اَلْعَرَبُ وَكُلُّ رُؤَسَاءِ قِيدَارَ هُمْ تُجَّارُ يَدِكِ بِالْخِرْفَانِ وَالْكِبَاشِ وَالأَعْتِدَةِ. فِي هذِهِ كَانُوا تُجَّارَكِ. 22 تُجَّارُ شَبَا وَرَعْمَةَ هُمْ تُجَّارُكِ. بِأَفْخَرِ كُلِّ أَنْوَاعِ الطِّيبِ وَبِكُلِّ حَجَرٍ كَرِيمٍ وَالذَّهَبِ أَقَامُوا أَسْوَاقَكِ. 23 حُرَّانُ وَكَنَّةُ وَعَدَنُ تُجَّارُ شَبَا وَأَشُّورَ وَكَلْمَدَ تُجَّارُكِ. 24 هؤُلاَءِ تُجَّارُكِ بِنَفَائِسَ، بِأَرْدِيَةٍ أُسْمَانْجُونِيَّةٍ وَمُطَرَّزَةٍ، وَأَصْوِنَةٍ مُبْرَمٍ مَعْكُومَةٍ بِالْحِبَالِ مَصْنُوعَةٍ مِنَ الأَرْزِ بَيْنَ بَضَائِعِكِ» .(حزقيال 27).

إنها صورة حية لسوق كانت عامرة بالحياة، ونص ينضح بما كان يروج في مدية كان لها ما كان مع مملكة يهودا، كما رسمت ذلك صياغة التوراة.

الفرس في الطقوس الملكية

ورد في قصة إستير زوج الملك الفارسي، صورة أخرى من صور استعمال الخيول في تكريم المكرمين لدى الملوك، وهكذا جاءت الصورة في سفر إستير:

« 6 وَلَمَّا دَخَلَ هَامَانُ قَالَ لَهُ الْمَلِكُ: «مَاذَا يُعْمَلُ لِرَجُل يُسَرُّ الْمَلِكُ بِأَنْ يُكْرِمَهُ؟» فَقَالَ هَامَانُ فِي قَلْبِهِ: «مَنْ يُسَرُّ الْمَلِكُ بِأَنْ يُكْرِمَهُ أَكْثَرَ مِنِّي؟» 7 فَقَالَ هَامَانُ لِلْمَلِكِ: «إِنَّ الرَّجُلَ الَّذِي يُسَرُّ الْمَلِكُ بِأَنْ يُكْرِمَهُ 8 يَأْتُونَ بِاللِّبَاسِ السُّلْطَانِيِّ الَّذِي يَلْبَسُهُ الْمَلِكُ، وَبِالْفَرَسِ الَّذِي يَرْكَبُهُ

الْمَلِكُ، وَبِتَاجِ الْمُلْكِ الَّذِي يُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، 9 وَيُدْفَعُ اللِّبَاسُ وَالْفَرَسُ لِرَجُلٍ مِنْ رُؤَسَاءِ الْمَلِكِ الأَشْرَافِ، وَيُلْبِسُونَ الرَّجُلَ الَّذِي سُرَّ الْمَلِكُ بِأَنْ يُكْرِمَهُ وَيُرَكِّبُونَهُ عَلَى الْفَرَسِ فِي سَاحَةِ الْمَدِينَةِ، وَيُنَادُونَ قُدَّامَهُ: هكَذَا يُصْنَعُ لِلرَّجُلِ الَّذِي يُسَرُّ الْمَلِكُ بِأَنْ يُكْرِمَهُ» (إستير، 6/6..)

الجياد بريد

واستعملت الجياد في نقل البريد في فارس أيضاً، كما يدل على ذلك هذا النص:

«9 فَدُعِيَ كُتَّابُ الْمَلِكِ فِي ذلكَ الْوَقْتِ فِي الشَّهْرِ الثَّالِثِ، أَيْ شَهْرِ سِيوَانَ، فِي الثَّالِثِ وَالْعِشْرِينَ مِنْهُ، وَكُتِبَ حَسَبَ كُلِّ مَا أَمَرَ بِهِ مُرْدَخَايُ إِلَى الْيَهُودِ وَإِلَى الْمَرَازِبَةِ وَالْوُلاَةِ وَرُؤَسَاءِ الْبُلْدَانِ الَّتِي مِنَ الْهِنْدِ إِلَى كُوشَ، مِئَةٍ وَسَبْعٍ وَعِشْرِينَ كُورَةً، إِلَى كُلِّ كُورَةٍ بِكِتَابَتِهَا وَكُلِّ شَعْبٍ بِلِسَانِهِ، وَإِلَى الْيَهُودِ بِكِتَابَتِهِمْ وَلِسَانِهِمْ. 10 فَكَتَبَ بِاسْمِ الْمَلِكِ أَحَشْوِيرُوشَ وَخَتَمَ بِخَاتِمِ الْمَلِكِ، وَأَرْسَلَ رَسَائِلَ بِأَيْدِي بَرِيدِ الْخَيْلِ رُكَّابِ الْجِيَادِ وَالْبِغَالِ بَنِي الرَّمَكِ، ... 14 فَخَرَجَ الْبَرِيدُ رُكَّابُ الْجِيَادِ وَالْبِغَالِ...» (إستير، 8/)

حمل الموتى

واستعملت في حمل الموتى:
«17 وَعَاشَ أَمَصْيَا بْنُ يُوآشَ مَلِكُ يَهُوذَا بَعْدَ وَفَاةِ يَهُوآشَ بْنِ يَهُوأَحَازَ مَلِكِ إِسْرَائِيلَ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً. 18 ... 19 وَفَتَنُوا عَلَيْهِ فِتْنَةً فِي أُورُشَلِيمَ، فَهَرَبَ إِلَى لَخِيشَ، فَأَرْسَلُوا وَرَاءَهُ إِلَى لَخِيشَ وَقَتَلُوهُ هُنَاكَ. 20 وَحَمَلُوهُ عَلَى الْخَيْلِ فَدُفِنَ فِي أُورُشَلِيمَ مَعَ آبَائِهِ فِي مَدِينَةِ دَاوُدَ». (الملوك الثاني، 14/). و(أخبار الأيام الثاني، 25/28).

وسميت بها مدن:

«31 وَفِي بَيْتِ مَرْكَبُوتَ وَحَصَرِ سُوسِيمَ وَبَيْتِ بِرْئِي وَشَعَرَايِمَ. هذِهِ مُدُنُهُمْ إِلَى حِينَمَا مَلَكَ دَاوُدُ». (الأيام الأول، 4/).

تسمية الأبوب

وسميت بها الأبواب:

«28 وَمَا فَوْقَ بَابِ الْخَيْلِ رَمَّمَهُ الْكَهَنَةُ، كُلٌّ وَاحِدٍ مُقَابِلَ بَيْتِهِ». (الملوك الثاني، 11/). و(أخبار الأيام الثاني15/23). (نحميا، /28 ونحميا 3/28..).

«40 وَيَكُونُ كُلُّ وَادِي الْجُثَثِ وَالرَّمَادِ، وَكُلُّ الْحُقُولِ إِلَى وَادِي قَدْرُونَ إِلَى زَاوِيَةِ بَابِ الْخَيْلِ شَرْقًا، قُدْسًا لِلرَّبِّ. لاَ تُقْلَعُ وَلاَ تُهْدَمُ إِلَى الأَبَدِ» (إرمياء،31:).

وتردد ذكر الفرس في كل الأسفار التي حررها أنبياء بني إسرائيل الذين عانوا أحداث ما قبيل النفي البابلي أو عاشوها، مثل إرمياء الذي عاش قريباً من عهد السبي البابلي، وحزقيال الذي دون كتابه حوالي 571 ق.م ، ودانيل (دون كتابه حوالي 535 ق.م)، وفيه سجل أحداثاً وقعت بين عامي 605 و535 ق. م. وعزرا (دون كتابه حوالي 450 ق.م)، وأرخ لأحداث ما بين 538 و450 ق. م. ونحميا الذي دون سفره حوالي سنة 432-445 ق. م.

بمعنى أن الفرس أصبح في هذه الفترة، من مألوف بني إسرائيل، فهو المرافق في الحروب منهم وعليهم، وهو السلعة في الأسواق والمبادلات «الدولية» وهو أداة الحمل والنقل، وهو رمز القوة والضعف أيضاً.

الفرس الرمز

نختم هذه القراءة السريعة المتتبعة للفرس في كتاب العهد العتيق، بصور أخرى عرف بها الفرس عند الشعوب القديمة، وخصوصاً عند بني إسرائيل، تلك هي الفرس الرمز السماوي، وقد وردت نصوص كثيرة بهذا المعنى في العهد العتيق، نكتفي نحن بنموذجين منها وإلا فهي كثيرة، من ذلك ما جاء في سفر الملوك الثاني، الإصحاح الثاني، الفقرة 11، حيث أصعد الرب النبي إليا إلى السماء. فقد جاء في السفر:

«11 وَفِيمَا هُمَا يَسِيرَانِ[إيليا وإليشع] وَيَتَكَلَّمَانِ إِذَا مَرْكَبَةٌ مِنْ نَارٍ وَخَيْلٌ مِنْ نَارٍ فَصَلَتْ بَيْنَهُمَا، فَصَعِدَ إِيلِيَّا فِي الْعَاصِفَةِ إِلَى السَّمَاءِ».

فالمركبة هنا والخيول ليست من مألوف الطبع، إنما هي القوة التي فصلت إليا عن الأرض وحملته إلى السماء.

وورد في سفر زكرياء، الإصحاح الأول الفقرة 8 وما بعدها، والإصحاح السادس الفقرة الأولى وما بعدها:

« [المتحدث هو زكرياء]8 رَأَيْتُ فِي اللَّيْلِ وَإِذَا بِرَجُل رَاكِبٍ عَلَى فَرَسٍ أَحْمَرَ، وَهُوَ وَاقِفٌ بَيْنَ الآسِ الَّذِي فِي الظِّلِّ، وَخَلْفَهُ خَيْلٌ حُمْرٌ وَشُقْرٌ وَشُهْبٌ. 9 فَقُلْتُ: «يَا سَيِّدِي، مَا هؤُلاَءِ؟» فَقَالَ لِي الْمَلاَكُ الَّذِي كَلَّمَنِي: «أَنَا أُرِيكَ مَا هؤُلاَءِ». 10 فَأَجَابَ الرَّجُلُ الْوَاقِفُ بَيْنَ الآسِ وَقَالَ: «هؤُلاَءِ هُمُ الَّذِينَ أَرْسَلَهُمُ الرَّبُّ لِلْجَوَلاَنِ فِي الأَرْضِ». 11 فَأَجَابُوا مَلاَكَ الرَّبِّ الْوَاقِفِ بَيْنَ الآسِ وَقَالُوا: «قَدْ جُلْنَا فِي الأَرْضِ وَإِذَا الأَرْضُ كُلُّهَا مُسْتَرِيحَةٌ وَسَاكِنَةٌ».

«1 فَعُدْتُ وَرَفَعْتُ عَيْنَيَّ وَنَظَرْتُ وَإِذَا بِأَرْبَعِ مَرْكَبَاتٍ خَارِجَاتٍ مِنْ بَيْنِ جَبَلَيْنِ، وَالْجَبَلاَنِ جَبَلاَ نُحَاسٍ. 2 فِي الْمَرْكَبَةِ الأُولَى خَيْلٌ حُمْرٌ، وَفِي الْمَرْكَبَةِ الثَّانِيَةِ خَيْلٌ دُهْمٌ، 3 وَفِي الْمَرْكَبَةِ الثَّالِثَةِ خَيْلٌ شُهْبٌ، وَفِي الْمَرْكَبَةِ الرَّابِعَةِ خَيْلٌ مُنَمَّرَةٌ شُقْرٌ.4 فَأَجَبْتُ وَقُلْتُ لِلْمَلاَكِ الَّذِي كَلَّمَنِي: «مَا هذِهِ يَا سَيِّدِي؟» 5 فَأَجَابَ الْمَلاَكُ وَقَالَ لِي: «هذِهِ هِيَ أَرْوَاحُ السَّمَاءِ الأَرْبَعُ خَارِجَةٌ مِنَ الْوُقُوفِ لَدَى سَيِّدِ الأَرْضِ كُلِّهَا. 6 الَّتِي فِيهَا الْخَيْلُ الدُّهْمُ تَخْرُجُ إِلَى أَرْضِ الشِّمَالِ، وَالشُّهْبُ خَارِجَةٌ وَرَاءَهَا، وَالْمُنَمَّرَةُ تَخْرُجُ نَحْوَ أَرْضِ الْجَنُوبِ». 7 أَمَّا الشُّقْرُ فَخَرَجَتْ وَالْتَمَسَتْ أَنْ تَذْهَبَ لِتَتَمَشَّى فِي الأَرْضِ، فَقَالَ: «اذْهَبِي وَتَمَشَّيْ فِي الأَرْضِ». فَتَمَشَّتْ فِي الأَرْضِ».

فهذه الخيول ذات الألوان المختلفة التي لا بد أن تكون من ألوان الفرس في تلك العهود، رمز للعناية تمرح في الأرض لمراقبة سير بني البشر. وما كان بالإمكان أن تكلف بهذه المهمة لولا احترامها البالغ إذ ذاك، وجلال أمرها نفساً وصورة.

لا يسمح المقام بالإطالة في هذا الموضوع في هذه المناسبة، وإلا فالقول في الفرس كما نقله كتاب العهد العتيق، قول ذو وجوه، قد نعود إليه في مناسبة أخرى شبيهة بهذه.

المصـــادر

- Biblia Hibraica، Edit Rudolf Kittel، Wurttembergische Stuttgart، Germany (1973)

وهذه طبعة علمية للعهد العتيق، بلغته العبرية، تختلف عن مجمل الطبعات التقليدية التي يصدر بها كتاب العهد العتيق، فقد وُضعتْ لينظر فيها العلماء الباحثون، أرفقت بمقدمة علمية إضافية باللغة الألمانية، وبهوامش مفصلة تحيل على اختلاف التقاليد والنشرات، وعلى الترجمة السبعينية أو الإغريقية التي هي أم كتاب العهد العتيق الذي هو بين أيدي المسيحيين اليوم، والكثير من هذا النص السبعيني يختلف عن النص الأصلي العبري اليهودي.

- التفسير التطبيقي للكتاب المقدس، وهو آخر ترجمة عربية ظهرت سنة 1997 بالقاهرة (Master Media).

تتميز هذه الطبعة بخلاصة لإشارات تاريخية مهمة، على الرغم من تغلب نزعة الاعتقاد على أصحابها، وتتميز بالتعريف بالكثير من شخوص العهد العتيق، ورسم خرائط ترصد مجريات الأحداث وتنقلات الشخوص. وتتميز الطبعة أيضاً بتفسير لاهوتي يحيِّن نص العهد العتيق ليكون في خدمة المسيحية اليوم، وفي هذه التفاسير نلحظ محاولة لربط اليهودية بالمسيحية بخيط متين. ومن المفيد أن نشير إلى أن هذه الترجمة لم تتقيد كل التقيد بالنص الأصلي، ففيها أحياناً إهمال وأحياناً زيادات تفسيرية لا يستطيع القارئ العادي فصلها عن نص الكتاب الأصل. وهذه من أهم عيوب هذه الترجمة.

- الكتاب المقدس (تقليد كاثوليكي)، نشرة الآباء اليسوعيين، المطبعة الكاثوليكية، عاريا، لبنان، 1985 (راجع نص هذه الترجمة الأديب المشهور إبراهيم اليازجي).

- الكتاب المقدس، مواقع كثيرة على الأنترنيت.

- أحمد شحلان، لغات الرسل وأصول الرسالات، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، مطبعة المعارف الجديدة، 1423هـ/2002، [لغة موسى وهارون والديانة اليهودية].

الفرس واستعمالاته الحربية في مغرب القرن التاسع عشر (1792 - 1912)

ذ. مصطفى الشابي(*)

أولاً: لمحة عن واقع المغرب في الفترة الزمنية موضوع الدراسة

لقد تعرضنا، في مُؤَلفينا حول «**النخبة المخزنية في القرن التاسع عشر**». و«**الجيش المغربي...**» في نفس الفترة الزمنية، وفي غيرهما من المقالات والدراسات، إلى مسألة طبيعة الحكم بالمغرب، وإلى مؤسسات وأجهزة الدولة، كما اهتممنا كذلك، بفئة النخبة في مفهومها الواسع، أي كل هذه الشرائح الاجتماعية التي كان أفرادها يستمدون نفوذهم ومكانتهم المتميزة في المجتمع، إمّا من مقومات فكرية وثقافية كأرباب الزوايا وأهل الولاية والصلاح، أو العلماء، أو الشرفاء...، أو مما اكتسبوه من تجربة وخبرة في قطاع التجارة والمال، أو من انتسابهم إلى أسر مدنية وعسكرية، ظلت تَمُدُّ المخزن، عبر الحقب والعصور، بأعوانه الكبار وخدامه الأوفياء[1].

ثم إن مما لا شك فيه أن المغرب كان يمثل كياناً سياسياً، واجتماعياً، وثقافياً، واضح المعالم في القرن التاسع عشر. وكان السلطان يُعتبر أعلى سلطة في البلاد، يستمد مشروعية حكمه من الأصول والأسس الشرعية التي تنبني عليها كل نُظم الحكم في البلاد الإسلامية، فضلاً عن تقاليد وأعراف وقواعد مرعية وعريقة في القدم، كانت تَحُدُّ من سلطة العاهل المغربي، وتدعوه، من حين لآخر، لاستشارة العلماء والفقهاء، أو أعضاء الجماعات القبلية، أو غيرها من الفئات الاجتماعية الأخرى في كبريات الحواضر، حول قضايا معينة، أو نوازل طارئة، كما أنه لم يكن يستمد حكمه وشرعيته من تفويض إلهي، أو كان حكمه استبدادياً مطلقاً، أو طبقياً تسلطياً. وما نظام البيعة إلاّ دليل واضح على ما ذهبنا إليه في هذا الصدد، حيث هو بمثابة التزام صريح وتعاقد متين بين السلطان الجديد ورعاياه، وهي أمور كانت تحدد بموجبها واجبات وحقوق كلا الجانبين.

(*)- ذ. مصطفى الشابي : أستاذ باحث

1- للمزيد من المعلومات حول مؤسسة المخزن، وطبيعة الحكم في القرن التاسع عشر بالمغرب، يُرجع إلى:
الشابي، مصطفى، النخبة المخزنية في مغرب القرن التاسع عشر، مطبعة فضالة، المحمدية، 1995.
« الجيش المغربي في القرن التاسع عشر 1830-1912، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، 2008، جزآن.
- Aubin, Eugène, Le Maroc d'Aujourd'hui, Ed. A. Colin, Paris, 1901.
- Lahbabi, M, Le Gouvernement marocain à l'Aube du XXe siècle, Ed. Nord-Africaines، Rabat, 1958.
- Laroui، A, Les Origines Sociales et Culturelles du Nationalisme Marocain 1830-1912, Edit. F. Maspéro, Paris, 1977.

إضافة إلى هذه المقومات الفكرية والرمزية، لابد من الإشارة إلى بعض الخصائص والممارسات التي تُعتبر من صميم اختصاصات الدولة المستقلة، وكانت علامة وبُرهاناً على وجودها، كالرقعة الترابية التي كان يشملها نفوذ وسلطة السلطان، مادية كانت أم روحية، وحريته الكاملة في سك العملة متى شاء، وتوفره على قوة عسكرية، وهي على كل حال قوة مهما كانت عيوبها ونقائصها، ظلت تمثل أداة في يد المخزن لتنفيذ أوامره، والإسهام في نشر الأمن واستتبابه، والدفاع عن حوزة البلاد، إن دعت الضرورة إلى ذلك، كما كانت تساعد على جباية الضرائب وغيرها من الفروض والواجبات التي هي من مستحقات المخزن.

ثم إن خصوصيات البلاد السياسية، والاجتماعية، والثقافية، وكذا الوسائل المادية والتقنية التي كانت بيد المخزن وقتئذ هي التي تفسر وتفرض التنقل المستمر للسلطان وأعوانه في مختلف أرجاء البلاد على رأس جيوشه. وقد كتب **السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن (1276-1290/ 1859-1873)**، في هذا الصدد، إلى نائبه بمدينة **طنجة، مَحمد بن عبد الله الخطيب التطواني**، رَدًّا على رغبة السفير الإنجليزي جون هي دراموندهي (John Hay Drummond Hay) في السكن والإقامة بإحدى الحواضر الداخلية الكبرى، عوض البقاء بمدينة البوغاز، المقر الرسمي للمفوضيات الدبلوماسية بالمغرب، ما يلي:

> «... فاعلم أنا لا نستقر بفاس، ولا مكناس، ولا بمراكش. فتارة هنا، وتارة بإحدى المدينتين المذكورتين، وتارة حاركين للقبائل المتعاصية. فالمستحسن أن يكون بطنجة، ومهما أراد القدوم على حضرتنا العالية بالله، يقدم مُكرماً، مُقابلاً بالاعتناء وجميل المراعات...»[1].

ولاحظ هذه الظاهرة، فيما بعد، النقيب **جول إركمان (Jules Erckman)**، عضو ثم رئيس البعثة العسكرية الفرنسية بالمغرب ما بين 1877 و1883، حيث كتب ما يلي:

> «ينتقل السلطان باستمرار داخل الأمبراطورية، على نحو يستحيل معه استقرار الحكومة في مكان معين. وتمثل فاس ومراكش، وهما الحاضرتان الرئيسيتان في البلاد محطتين يتوقف بهما السلطان، ويقيم بهما أحياناً مدة طويلة، إلا أنه كان يغادرهما فجأةً حين يستوجب الأمر ذلك. وقد اعتاد رجال المخزن على حياة الترحال باستمرار، دون أن يعرف سير العمل أي فتور، في مختلف المجالات والمرافق، كما لو تعلق الأمر بتصريف شؤون الدولة في مدينة من المدن...»[2].

1- بن الصغير، خالد، المغرب في الأرشيف البريطاني. مراسلات جون دراموندهي مع المخزن، 1846-1886، مطبعة ولادة، الدار البيضاء، 1992، وثيقة رقم 42، ص. 82 بتاريخ 28 شوال 1276/ 19 مايو 1860.

2- A.G.V, 3h2, Rapp. Erckman, n° 20، année 1879.

ومن ثمة الحاجة الماسة إلى دواب الركوب وحمل أثقال السلطان وحاشيته وأعوانه الكبار، وباقي المشاركين في الحملة أو الحركة من قواد، ورُؤساء الجند بمختلف تنظيماته، وفي مقدمتها، طبعاً، الخيول التي كانت تستعمل، عند الاقتضاء، في شن عمليات عسكرية ضد العشائر والجماعات التي يكون أمر إذعانها إلى الأوامر قد استعصى على المخزن، بعد أن تكون جميع سُبل ووسائل التفاوض والإقناع قد فشلت.

هذا، وقد لاحظ المغاربة ظاهرة التنقل هذه، كما لاحظها الأجانب. وكتب في هذا المعنى، السفير البريطاني **ريدجواي ويست (Ridgeway West)**، بمناسبة زيارة رسمية قام بها للمغرب، في غُضُون سنة 1893م، ما يلي:

> «... لقد سمعت عدة شكاوى من الطريقة التي يستقبل بها السلطان الوزير الأجنبي لدى قدومه إلى البلاط، إذ بينما يكون السلطان ممتطياً صهوة جواده، يقف الوزير عاري الرأس، في فناء مكشوف يكتظ بالقواد. ودفعني البحث في هذه المسألة إلى عدم الاقتناع بتلك الشكاوى. ففي المغرب، فرس السلطان هو عرشه... ولا أرى كيف يكون ذلك أكثر مهانة من الانحناء في قاعة العرش، كما جرت العادة بذلك عندنا في أوربا...»[1].

وكان يساعد السلطان في تسيير شؤون البلاد وزراء وكتاب وأعوان وأمناء وعمال وقواد... وكان هؤلاء وغيرهم من الأعوان والْخُدام يكونون ما اصطلح على تسميته «بالجهاز المخزني» في القرن التاسع عشر. طبعاً، كان هذا الجهاز بسيطاً، بل عتيقاً، لا يرقى إلى مستوى الأنظمة السياسية السائدة آنذاك في أوربا، وتعتريه عيوب ونقائص عديدة، كاستحكام مركزية مفرطة في أزمة الأمور، سواء تعلق الأمر بأهم القضايا وأخطرها، أو بمسائل عادية ومألوفة، وانعدام التدقيق في الاختصاصات، وظاهرة ترحال وتنقل الإدارة المركزية باستمرار عبر أرجاء البلاد... وهذا راجع، طبعاً، إلى أن المغرب وقتئذ، لم يكن بعد قد أخذ بأسباب الثورة الفلاحية، ولا الصناعية، ولا التقنية والتنظيمية، إذ ظل بلداً تقليدياً، يغلب على اقتصاده، وأوجه نشاط سكانه لكسب معاشهم وتصريف شؤونهم، طابع الخصاصة والقلة، وعلى بنياته السياسية والاجتماعية والثقافية سِمَاتُ الركود والْجُمود. ونتبين الحالة التي كان عليها المغرب وقتئذ وبكيفية واضحة، مما ورد في رسالة السلطان **مولاي الحسن (1293 - 1311 هـ/1873 - 1894 م)** إلى نائبه بمدينة طنجة مَحمد براش، حيث نقرأ ما يلي:

1- روجز، ت. ج، تاريخ العلاقات الأنجليزية المغربية حتى عام 1900، ترجمة يونان لبيب رزق، مطبعة دار الثقافة، الدار البيضاء، 1981، ص. 293-294.

«... لِكَون هذه الإيالة ليست كغيرها من الإيالات أهلها كلهم ذوو حضارة وتمدن، بل جلها أهل بَدَاوَة وَوَبَر، لا يستقر بهم قرار، ولا يَدُومون على حال، ويتقلبون مع كل ريح، ولا ينضبط لهم أمر، ويَعْسُرُ أمر تركهم للأمور العادية فضلاً عن الدينية. وحتى يُؤمرون به، إنما يمتثلونه قولاً لا فعلاً، إذا أريد منهم تنفيذه فعلاً، تنْزل عليهم الخيل والمحلة حتى ينفذوه كرهاً. ومهما نهضت عنهم، عادوا لعادتهم، وهذا حالهم من قديم...»[1].

ويتبين لنا كذلك من الوثائق أن الحاجة لم تكن تدعو وبإلحاح كبير، خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، إلى تنقل السلطان باستمرار على رأس جيوشه. بيد أن هذا التنقل قد أصبح ضرورة حتمية وأكيدة، في الفترة اللاحقة وحتى سنة 1912، بسبب المستجدات الحاصلة، سواء داخل المغرب، أو على مستوى تعامل وعلاقات البلاد مع عدد من الدول الأوربية الاستعمارية، وفي مقدمتها فرنسا وإسبانيا. ومن ثمة يصبح تنقل العاهل إجراءً طبيعياً، يقتضيه الحزم واليقظة والإقدام، الأمر الذي يجعل من الحركة وسيلة لتسيير شؤون البلاد، ويستهدف منها، في نفس الوقت، جباية الضرائب، وتأديب القبائل العاصية والمتمردة، واستظهار قوة المخزن، والتمهيد للدخول في مُفاوضات، وتجديد الروابط والوشائج بين السلطان والسكان[2].

ويصبح حضور السلطان أو من ينوب عنه من الأمراء أنجاله أو صنوانه في عين المكان ضورة ملحة، ولا سيما في الجهات النائية، أو الصعبة المسالك بسبب تضاريسها الوعرة، كمنطقة سوس مثلاً، أو حاحا، أو تادلة، أو الأطلس المتوسط، أو جبالة، أو الريف، أو تازة وما جاورها من قبائل، أو منطقة المغرب الشرقي بأكملها، إذا ما أريد من قبائل هذه المناطق الاستجابة إلى الأوامر المخزنية، أو أداء ما ترتب عليها من واجب وغيره، أو إصلاح ذات البين في حالة نشوب نزاع وخلاف بين قبيلتين أو أكثر حول مصادر المياه مثلاً، وتقسيم الأنصبة حول مناطق وأراضي النجعة واستغلال المراعي، إلى غير ذلك من أسباب وأوجه الصراع والتطاحُن[3]. وقد كتب أحد القواد، في هذا المعنى، ما يلي:

1- خ. س، ك 347، الوثيقة بتاريخ 23 ربيع 2/ 22 يناير 1884.

2- حول هذه النقطة وغيرها مما يتعلق بمؤسسة الجيش المغربي في الفترة موضوع دراستنا هذه، يُرجع إلى:
- برادة، ثريا، الجيش المغربي وتطوره في القرن التاسع عشر، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1997.
- الشابي، مصطفى، الجيش المغربي في القرن التاسع عشر 1830 - 1912، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، 2008، جزآن.

3- يُرجع إلى نماذج من هذه الحالات في الوثائق الآتية:
خ. س، ك 61، ص 11، رسالة القائد العباس أمقشد إلى السلطان بتاريخ 17 ذي الحجة 1283/ 22 أبريل 1867. وأمقشد هذا، كان يُعَدُّ من أبرز قواد منطقة الريف، وقتئذ، إذ كان المخزن يعول عليه وعلى أمثاله في نشر نفوذه في هذه الربوع، وإسماع كلمته. تولى باشوية مدينة طنجة سنة 1865، كما عمل بدار النيابة، إلى جانب مَحمد برگاش حيث كان ينوب عنه أثناء غيابه.

«... اعلم سيدي، إن حضر سيدنا، حضر ذلك، وإن غاب سيدنا، لا يلتفتوا إلينا، ولا يسمعوا لنا، ولا ينظروا وجوهنا، ولا وجدنا لهم طاقة ولا حول ولا قوة...»[1].

بيد أن المخزن كان لا يحصل دائماً على نتائج تذكر حين تجهيزه حملات عسكرية ضد بعض القبائل الجبلية الشديدة المراس والصعبة المنال كغياثة مثلاً، أو أيت شخمان، أو بني ميلد، أو إداوتنان... فوعورة جبالها وتشعب منعرجات أوديتها، كانت تساعد هؤلاء الجبليين على الإفلات من قبضة الجند المخزني، كما كان استعمال الخيول في اكتساح معاقلها لا ينفع في شيء، ولربما أدى إلى هلاك وضياع العديد منها، وحدوث عكس الهدف المنشود، إذ تنجح القبيلة العاصية في نصب كمائن يسقط في شباكها العديد من مقاتلي المخزن وفرسانه. فالمجال الطبيعي في هذه المناطق، من حيث انتظام السلسلات الجبلية والشواهق، وكثافة الغطاء النباتي، وكثرة الكهوف والمغارات، كلها عوامل كانت تسمح للسكان بإبطال مساعي المخزن وجهوده في سبيل التوصل إلى مُراده[2].

ثانياً: عناية المغاربة بالخيول وتكريمهم لها

يبدو من أعمال وأبحاث عدد من الباحثين والمختصين في التنقيب والكشف عن آثار وبقايا الحضارات الغابرة في منطقة المغرب العربي بصفة عامة، والمغرب بصفة خاصة، أن الفرس قد ظهر في هذه الربوع منذ أقدم العصور، وبالضبط، حسب تقديراتهم، منذ أواسط الألفية الثانية قبل الميلاد، على أقل تقدير.

وتتحدث المصادر المكتوبة، من جهتها، ولا سيما القديمة منها، عن أهمية الخيول في الحياة اليومية للحكام وكذا في العمليات الحربية لأمراء الممالك الأمازيغية، والجيوش الغازية لبلاد شمال إفريقيا، سواء تعلق الأمر بالفيالق الرومانية، أو بجحافل قبائل الوندال، أو بالفاتحين العرب.

ويبدو كذلك، أن المغاربة ومنذ هذه العصور الغابرة، صاروا يولون عناية خاصة للفرس، بل يُكرمونه ويُعزون شؤونه، وهذا ما يُفهم مما نسب من القول إلى جماعة منهم، وهم بين يدي

1- خ. س، مح. ح رقم 93، رسالة القائد الحبشي الملكي المخلوفي إلى السلطان، وهي بتاريخ 5 ذي القعدة 1303/ 5 غشت 1886.

2- حول السياسة المتبعة من قبل سلاطين الفترة، بدءاً من السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام (1238 - 1276هـ/ 1822 - 1859م) وانتهاء بالسلطان مولاي عبد العزيز بن الحسن (1311 - 1326هـ/ 1894 - 1908م)، في معالجة مشكلات وقضايا قبيلة غياثة وقبائل منطقة المغرب الشرقي بكاملها والمناطق الجنوبية الشرقية، أنظر ما كتبه الفقيه الحجوي في هذا الصدد في كتابه:
الحجوي، محمد بن الحسن بن العربي الثعالبي، انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره، مخ. خ. و. م. م، رقم ح. 123، ص. 14.

الخليفة عمر ابن الخطاب، بمناسبة اعتناقهم الإسلام، حيث صرحوا له: «نكرم الخيل ونهين النساء»، في إشارة، ولا شك، إلى أنهم وقومهم يسترخصون كل غال ونفيس في سبيل نشر الإسلام والعمل على اتساع رقعته، سواء في بلادهم أو خارجها.

وفي كتابات الأوربيين الوافدين على البلاد، وبعد أن أتيحت لهم فرص ملاحظة ومُراقبة عادات وتقاليد أهلها، إشارات وشهادات عديدة، وأحياناً غريبة، على أنواع التكريم التي كان المغاربة يخصون بها الفرس دون غيره من باقي الأنعام والدواب الأخرى، إلى درجة أن بعض الرؤساء والحكام كانوا يساوون بين الجندي وبهيمته، بل منهم من كان يفضلها عليه، في بعض المناسبات.

ويهمنا هنا أن نذكر مكانة هذا الحيوان الأليف، والجميل الهيأة والمنظر، والأنيق في مشيته وجريه، والذي ظل يحظى بعناية خاصة ومتواصلة من قبل السلاطين العلويين في القرن التاسع عشر والذين وهم يفعلون، إنما يسيرون على نفس النهج، ويقتدون بما كان جارياً به العمل في بلاطات وتقاليد الدول والأسر التي تعاقبت على الحكم بالمغرب، منذ نشأة أول كيان سياسي مركزي وموحد على يد الأشراف الأدارسة.
وجاء في: «**مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**»، لأحمد **بن يحيى بن فضل الله الْعُمري المتوفى سنة 749هـ/ 1348م**، ما يلي:

> «... الذي نعرف قبل فتح تلمسان، ما كانت تزيد جريدة جيشه، المثبتين في الديوان على أربعين ألف فارس، غير حفظة المدن والسواحل. وكان يمكنه، إذا استجاش لحرب، أن يخرج في جموع كثيرة جداً، لا تنحصر بعدد، ويكون - الآن - قد زاد على ما أعرفه مثله لاستجداد تلمسان له...»[1].

ويهمنا كذلك التذكير بأن امتلاك الفرس، في الفترة الزمنية موضوع هذه الدراسة، كان يكتسي عدة دلالات. فهو أولاً بهيمة كبرى لا تكون إلاّ في حوزة الملوك وكبار القوم وأمليائهم في الحواضر والبوادي، وهي كذلك دَلاَلَةٌ على أن مالكها يتبوأ مكانة رفيعة في المجتمع، كما أنها شارة من شارات الملك والسلطة، ناهيك عن تسخيرها في ميادين القتال واستعمالها في مهرجانات الفرجة والاحتفال.

1- أورده محمد بن عبد الهادي المنوني في كتابه: ورقات من حضارة المرينيين، مطبعة النجاح لجديدة، الدار البيضاء، 1996، ص. 101:
«العاهل الذي كان مسجلاً في ديوان جيوشه هذا العدد المهم من الخيالة وحدهم، دون احتساب من كان منهم مرابطاً في الثغور والمدن الساحلية، هو أبو علي حسن المريني الذي حكم البلاد ما بين 710 و731هـ، الموافق لِ 1331 - 1348م».

ثم إن تقديم فرس هدية إلى السلطان كان يُعَد عنوان الطاعة والإذعان إلى الأوامر، سواء تعلق الأمر بأعوان المخزن أو بغيرهم، أو بالقبائل. وحين يقدم العاهل فرساً واحداً أو أكثر هدية إلى رئيس أو ملك دولة أجنبية، فإن ذلك يعني أن علاقات الجانبين كانت لا تشوبها شائبة، وغاية في التفاهم والتعاون. يقول أبو القاسم بن أحمد الزياني، في مؤلفه «**البستان الظريف...**»، في سياق الحديث عن العلاقات الممتازة القائمة وقتئذ بين السلطان **سيدي محمد بن عبد الله (1171 - 1204هـ/ 1757 - 1790م)** والباب العالي، ما يلي:

> «وفي عام ثمانين ومائة وألف، وَجَّه الحاج عبد الكريم راغون بهدية عظيمة للسلطان مصطفى العثماني، وهي خيل عربية بسروج ذهب مُنبتة بالأحجار الثمينة، وسلاح ذهب باليواقيت والزُّمُرُّد، وأشياء غيرها...»[1].

ومن مظاهر اعتناء المخزن برصيده من الخيول والفرسات وضبط شؤونها، اتخاذه كنانيش خاصة تُسجل فيها أسماؤها، وأنسابها، وأوصافها...، سواء تعلق الأمر بالتي كانت تَحْظُرها هوائر واسطبلات فاس، ومكناس، ومراكش، أي العواصم الثلاثة التي كان يتوقف بها السلطان وحاشيته، كلما أنهى رحلته إلى هذه الجهة أو تلك، أو بالتي كانت ترسل إلى العذائر المخزنية الموزعة على عدد من الجهات، كالغرب، والهبط، وفحص طنجة، ودكالة، والشاوية، أي الجهات التي كانت بها مراعي خصبة ودائمة الاخضرار، وتتميز بدرجة من الرطوبة مرتفعة، وبتدفق مياه وافرة أو راكدة في «مرجات» أو بحيرات على جنبات الأودية والأنهار. وكان قواد قبائل هذه المناطق يكلفون بالسهر عليها، وتفقدها باستمرار، والحفاظ عليها، إذ كانت العهدة عليهم في حالة هلاك أو ضياع بعضها دون مبرر معقول.

هذا ومن شأن ما أثبتناه من أرقام في الجدولين الآتيين، حول ودائع المخزن من الخيول والدواب الأخرى لدى قبائل الحوز، أن يعطينا فكرة، ولو تقريبية، عن رصيد المخزن منها في هذا التاريخ أو ذاك، فضلاً عما كان محظوراً منها في عذائره، و«هوائره»، واسطبلاته:

1- الزياني، أبو القاسم بن أحمد، البستان الظريف في دولة أولاد مولاي الشريف، دراسة وتحقيق رشيد الزاوية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، 1992، القسم الأول، ص. 401.

الجدول الأول:

القبائل	أعداد				التاريخ	ملاحظات
	البغال		للفرسل	الخيل	الإبل	
	حادثة	قديمة				
دكالة	000	564	020	621	212	12 ذي القعدة 1314/ 14 أبريل 1897	وردت في هذه الوثيقة أسماء القواد والقبائل معاً، وما كان عند كل واحد منهم من دواب. وفي وثيقة مماثلة لهذه، وهي بتاريخ 26 ذي الحجة 1314، الموافق لـ 28 مايو 1897، بلغ عدد الإبل المخزنية المودعة عند قبائل بني أحسن، وسفيان وبني مالك، والهبط وفحص طنجة، وقبائل يش أزغار، وأيت ولال، وكروان، وأعراب سايس، والقبائل التابعة لإيالة الباشا ولد أب محمد 772 جملاً. - خ. س، ك 227، ص. 19.
الشاوية	000	1629	069	931	651	« »	
الديارة	261	856	031	520	363	4 شعبان 1307/ 26 مارس 1890	
الرحامنة	188	000	013	338	075		
المجموع	449	3049	131	2410	1301		

الجدول الثاني:

القبائل	أعداد				التاريخ والمصدر	ملاحظات
	بغال	الفرسات	الخيل	الإبل		
دكالة	564	20	621	212	خ. س، ك 227، ص. 12، وثيقة بتاريخ 27 ذي الحجة 1314/ 29 مايو 1897.	تثير هذه الأرقام الملاحظات الآتية: 1) تصدر قبائل دكالة، والشاوية، والديارة قائمة القبائل المذكورة بمنته، إذ يمثل ما كان عندها لوحدها من بهائم المخزن النسب الآتية: - حوالي 65، 50 % من مجموع البغال. - حوالي 52 % من مجموع الخيول. - حوالي 45 % من مجموع الإبل. 2) أكبر عدد من البغال كان عند الديارة، أي في المناطق الجبلية، في حين نجد أكبر عدد من الإبل عند قبيلة الشاوية. 3) هذه الأعداد من البهائم تهم فقط منطقة الحوز، في مفهومه الواسع. وإذا ما أضفنا إليها ما كان مودعا منها لدى قبائل الغرب، فإن من شأن ذلك أن يعطينا فكرة عن الرصيد الهام الذي كان يتوفر عليه المخزن من هذه الدواب.
الشاوية	898	55	283	268	« « «	
أحمر	096	03	021	109	« « «	
عبدة	549	22	113	077	« « «	
السراغنة	115	04	259	142	« « «	
زمران	128	05	155	035	« « «	
بني مسكين	000	00	000	020	« « «	
الرحامنة	188	13	338	075	« « «	
الشياظمة	064	02	091	084	« « «	
حاحة	221	09	000	071	« « «	
أولاد ابن أبي السبع	000	00	000	065	« « «	
المنبهي	001	00	002	037	« « «	
الديارة	1120	33	293	106	« « «	
«	0000	00	135	000	« « «	
مجاميع	3944	166	2311	1301		

ثالثاً : سلاح الفروسية والتكتيك الحربي للجيش المغربي في القرن التاسع عشر

من المعلوم أن الجيش المغربي، في الفترة الزمنية موضوع دراستنا هذه، كان يتكون من الفرق والتنظيمات الآتية:

- **قبائل الجيش، بما فيها عبيد الْبُخاري وأهل سوس.**
- **جيش أو عسكر «النظام» الذي أُنشئ غداة وقعة إيسلي سنة 1844.**
- **حراك القبائل**، بين فرسان ورماة، والذين كان يتم استنفارهم كلما عقد العاهل الحاكم العزم على القيام بحركة إلى جهة من جهات البلاد.

هذا، ولعل اللجوء إلى قبائل معينة، وإعفاءها من أداء الضرائب غير الشرعية، وما شابهها من الكلف والمغارم، ومنح رجالها أراضي فلاحية يستغلونها لحسابهم، مُقابل الخدمة في الجندية مدى الحياة، لظاهرة متميزة وعريقة في تاريخ المغرب، ترجع على الأقل إلى عهد الخليفة الموحدي يعقوب المنصور (580 - 599هـ/ 1184 - 1199م)، حين أقدم على ترحيل قبائل بني هلال العربية، حيث أسكنهم في منطقة الغرب، متخذاً منهم جيشاً في خدمة الدولة[1].

بيد أن هذه المجموعات القبلية لم تندمج نهائياً في مؤسسة الجيش، ولم تحتل مكانة مرموقة في دواليبها إلاَّ مع دولة السعديين، بالرغم من كون هؤلاء لم يعتمدوا عليها وحدها، حيث عملوا على تأسيس جيش نظامي تُطعم صفوفه بعناصر محلية وأجنبية[2].

ومع تولي الدولة العلوية مقاليد الحكم بالبلاد، ازدادت أهمية هذه المجموعات القبلية في قطاع الجيش وفي المجتمع، واستكملت عدد من فرقه تشكيلتها التقليدية والنهائية، وذلك بعد إدماج قبائل اشراكة وأولاد جامع، والأوداية، والشراردة في صفوفها، على امتداد قرن ونصف تقريباً من الزمن، بدءاً من عهد السلطان مولاي الرشيد ابن الشريف **(1075 - 1083هـ/ 1664 - 1672م)**، وانتهاءً بعهد مولاي عبد الرحمن بن هشام[3].

وإلى جانب هذه الفرق الرئيسية، دأب السلاطين، من حين لآخر، على تجنيد عناصر من قبائل أخرى، وتوطينها في أماكن استراتيجية وحساسة، جاعلين منها نوعاً من «الجيش الثانوي». وكانت هذه العناصر تنتمي، على الخصوص، إلى قبائل جسيمة ومسجينة والمناهبة (سوس)، وأيت يِمور، والمنابهة، وأولاد مطاع، وحربيل (حوز مراكش)، وفطاية، وسمكت، وبني معدان، وبني ملال (جيش أيت الربع بتادلة، والجيش الريفي من عناصر مختلفة (فحص طنجة)، والعرائش، وأيت خَبَّاش (تافيلالت)، ومجاط (ناحية مكناس)، وأيت إسحاق، وأيت عياش (الأطلس المتوسط)، وأيت يمور (تخوم الأطلسي المتوسط والكبير)، ثم الترحيل إلى تادلة، ومنها إلى منحدر جبل سلفات وسهل السبو بالغرب، وأخيراً الاستقرار بأحواز مدينة مراكش.

1- Michaux-Bellaire (Ed), Salmon (G), Les Tribus Arabes de la Vallée du Lekkous، Arch. Mar., Vol. 4, 1905, p. 127.

- Michaux-Bellaire (Ed), Le Gharb, Arch. Mar., Vol. 20، 1913, p. 23 et suiv.

2- حجي، محمد، الحركة الفكرية في المغرب في عهد السعديين، مطبعة فضالة، المحمدية، 1977، ج 1، ص. 47 وما بعدها.

3- ابن زيدان، عبد الرحمن، العز والصولة في نظم الدولة، المطبعة الملكية، الرباط، 1961، ج 2، ص. 189 وما بعدها.

يقول المؤرخ العربي المشرقي، في سات الدولة المغربية في عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن، ما يلي:

«... فجيوشه الملازمون لخدمته حضراً وسفراً خمسة قبائل بل ستة، بُخاري، وشركي، وجامعي، وشرادي، وأودي، وأهل سوس المنشية، وجيوش الثغور الريفية وكلهم خيل، وعساكره الرجلية ليس لهم قبيلة مخصوصة، بل هم من سائر القبائل...»[1].

من جهة أخرى، أكَّد عدة مرات النقيب إركمان، رئيس البعثة العسكرية الفرنسية بالمغرب، في التقارير التي كان يرفعها إلى الحاكم العام بالجزائر أو إلى وزير الحرب بباريس، الأهمية والمكانة المتميزتين لفرق الجيش، معتبراً إياها العمود الفقري للجيش بصفة عامة. وهذا يعني أنه حتى أواسط العقد الثامن من القرن التاسع عشر على الأقل، ظلت هذه الفرق تهيمن على المؤسسة العسكرية، وتمثل أهم قوة عسكرية منظمة ورادعة بيد المخزن، إلى جانب فرقة عبيد الْبُخاري طبعاً، بالرغم من تناقص أعداد عناصرها، على امتداد القرن التاسع عشر[2].

ثم إن مفهوم وتصور المسؤولين العسكريين بالمغرب، وفي مقدمتهم السلطان طبعاً، للعملية الحربية لم يتغيرا قط عَمَّا كانا عليه أيام العرب ومن شابههم من الأمم والشعوب، بمعنى أن طريقة المغاربة الحربية ظلت تعتمد على تاكتيك الكر والفر، وبالتالي ترجيح كفة سلاح الفروسية على باقي التنظيمات العسكرية الأخرى. يقول **ابن خلدون**، في هذا الصدد، ما يلي:

«وصفة الحروب الواقعة بين الخليقة منذ أول وجودهم على نوعين: نوع بالزحف صفوفاً، ونوع بالكر والفر. أمَّا الذي بالزحف فهو قتال العجم كلهم على تعاقب أجيالهم. وأما الذي بالكر والفر فهو قتال العرب والبربر من أهل المغرب...»[3].

ومع تقدم القرن التاسع عشر واحتكاك عناصر الجيش المغربي بمحاربي الجيوش الأوربية الحديثة، وخصوصاً بعد وقعة إسلي من جهة، ووقائع حرب تطوان (1859 - 1860م) من جهة ثانية، تبين للجميع أهمية ودور سلاحي المدفعية والمشاة في حسم أطوار ووقائع الحرب الحديثة. ولهذا، اتجهت عناية المخزن، أول الأمر، إلى تأسيس نواة جيش نظامي،

1- المشرفي، محمد العربي بن عبد القادر (ت. 1313هـ/1895م)، الحسام المشرفي لقطع لسان الساب العجرفي، الناطق بخرافات الجعسوس سيء الظن أكنسوس، م. و. م. م، ك 2276، ص. 275.

2- A.G.V. 3h2. Rapp. du lieut Erckman. au Général cdt le 19e Corps d'Armée à Alger. en date du 1er Avril 1879.

3- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، المقدمة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1967، ص. 480.

يكون معظم عناصره من الرماة، في عهد كل من السلطانين **مولاي عبد الرحمن بن هشام** وابنه وخلفه **سيدي محمد**. يقول الناصري، في سياق حديثه عن وقائع حرب تطوان، ما يلي:

> «... ولما فرغ السلطان رحمه الله من أمر تطاوين، جَدَّ في جمع العسكر المرتب على الترتيب المعهود اليوم. وكان هذا السلطان أول من أحدثه من ملوك المغرب، وكان إحداثه إياه في دولة أبيه رحمه الله، بعد رجوعه من وقعة إيسلي مع الفرنسيين...»[1].

وكان يحدث، بين الفينة والأخرى، أن يتدهور الوضع الأمني في جهة من جهات البلاد، فتنتشر أعمال السلب والنهب والاغتصاب، انتشار الحريق في الهشيم، على يد مُغامر يُعلن فجأة تمرده وعصيانه على المخزن. ولا أدل على ذلك من مُغامرة الثائر الجيلالي بن عبد السلام الزرهوني، المدعو الروغي بوحمارة، وشبيهه أحمد بن محمد الريسوني وما اقترفاه من جرائم وأعمال تخريبية في منطقة المغرب الشرقي، وتازة، وفحص طنجة ومنطقة جبالة، وما خلقاه للمخزن العزيزي من متاعب وقلاقل تكاد تشغل كل العقد الأول من القرن العشرين، أو بسبب انتفاض قبيلة أو مجموعة من القبائل لدواعي مختلفة، كما شهدت ذلك منطقة الحوز، بعد وفاة السلطان مولاي الحسن سنة 1894، أو ناحية تطوان فيما بعد، حيث تمردت قبائل **بني يدير، وبني مْصَوَّر، ووَادْرَاس، وأنجرة**، فضاق الأمر بهذه الحاضرة وبسكانها مدة من الزمان لا يستهان بها[2].

ففي مثل هذه الظروف والأوضاع، تُصبح الحاجة إلى الجيش ماسة، فتتعالى نداءات المسؤولين المخزنيين ورؤساء كتائب الجيش مطالبة بإرسال تعزيزات من الجند أو مدهم بما يلزم من السلاح والذخيرة. فهذا القائد محمد بن بوشتى البغدادي الشهير يوجه رسالة إلى الوزير الصدر **مُحمد المفضل غريط**، يطلب مَدَّه بعدد من الفرسان وبموافاته بمئونة أفراد الجيش والعسكر الذين كانوا يحاربون معه الثائر الريسوني بمنطقة فحص طنجة، حيث كتب يقول:

> «... فقد قدمنا الإعلام لسيادتكم فيما توقفنا عليه من الأمداد بالخيلِ مراراً، وطلبنا منكم إنهاء ذالك لعلم مولانا بتنفيذه وتوجيهه إلينا عاجلاً، وانتظرنا أجوبتكم عن ذالك، فلم يُوافينا منكم جواب. فيا ليت شعري ما

1- الناصري، أحمد بن خالد السلاوي، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1956، ج 9، ص. 101.

2+ التمسماني، عبد العزيز خلوق، جوانب من تاريخ جبالة المعاصر: القائد أحمد الريسوني وإسبانيا، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1996، ص. 53 وما بعدها.

المانع لذلك، مع أننا في بطن السبع وبمحل يمكن الاستغناء فيه علينا في عدم الأجوبة...».

وبعد أن أشار إلى ضياع خيل الفرسان من الجيش والعسكر، وذكر أنَّ ما تبقى منها حياً صار منعدم الفائدة، وأن جميع «خِيَّالَة» اشراغة، والشراردة، والأوداية الحاركين معه قد فروا بدوابهم وسلاحهم، وأنه قد راسل مراراً قوادهم في شأن تعويضهم بآخرين، ولكن بدون جدوى، أضاف قائلاً:

«وعلى كل حال، فقد أدينا الواجب علينا، ولكم فيه واسع النظر لأن قبيلة الأخماس عليها مدار القبائل بِمَرْأى ومسمع، فإن... المدد السعيد وأتت كرهاً عليها لا طوعاً، جميع القبائل ترجع عن غيها وتميل إلى الطاعة كرهاً عليها، وإن بقيت الأخماس على عتوها، فجميع القبائل بحسب التبعية...»[1].

بيد أنه بالرغم من مجهودات المخزن الهادفة إلى الاعتماد أكثر على الرماة، وبالخصوص في عهد السلطان مولاي الحسن، يبدو أن المغاربة ظلوا متشبثين بتقاليدهم الحربية التي كانت تجعل من الخيل العنصر الأساسي في حسم مصير المعركة. وهذا ما يتراءى لنا مما ورد في رسالة للريسوني المذكور، ولكن هذه المرة بصفته عاملاً على مدينة أصيلة وما كان تابعاً لها من القبائل الجبلية إلى النائب السلطاني بطنجة وقتئذ، **مَحمد بن مُحمد الْجَبَّاص**، سنتين فقط قبل فرض نظام الحماية على المغرب، حيث كتب يقول:

«... ومقصودنا بزيادة الخيل للعسكر لتزيد قوته وترهيبه للقبائل الجبلية، لِمَا يحصل لهم من الرعب برؤية الخيل، فضلاً عن مقابلتها...»[2].

والحق أنه لم يطرأ أي تطور يذكر، لا في هذا المجال ولا في المجالات الأخرى، وذلك لأسباب متعددة ومختلفة، منها ما هو راجع إلى الجمود والشلل اللذين أصابا بنيات البلاد السياسية، والاقتصادية، والثقافية والاجتماعية،

1- م، و. م. ر، مح 3، الرسالة بتاريخ 13 رجب 1325/ 22 غشت 1907.
2- خ. س، مح. م. ع. ح رقم 4، وثيقة بتاريخ 28 صفر 1328/ 11 مارس 1910.

بعد بارقة وادي المخازن سنة 1578، ومنها ما هو مرتبط بالتطورات والإنجازات العلمية والتقنية والثقافية والمادية التي تحققت في أوربا الغربية على الخصوص، منذ هذا التاريخ، بل قبله بعشرات السنين.

ويبدو أن الجندي المغربي، وبالخصوص الفارس، كان يُعطاه السلاح والعتاد الحربي الآتي:

- بندقية عربية.
- سيف.
- «كومية» بالنسبة للقواد.
- رماح قصيرة.
- جعبة أو جراب لوضع الخرطوش.

ومن ثمة اضطر المخزن إلى التوجه وباستمرار إلى فرنسا، أو بلجيكا، أو أنجلترا، أو ألمانيا للحصول على ما كان في حاجة إلى اقتنائه من العتاد الحربي، الأمر الذي كان ينطوي على العديد من المساوئ والسلبيات على مالية البلاد وسلامة مشترياتها منه على الخصوص.

صحيح أن نوعاً من البنادق وكميات من البارود كان يتم صنعه محلياً، خصوصاً على عهد السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام، إما في معامل للدولة بكل من تطوان، وطنجة والعرائش، أو في إطار عائلي وعشيري، ببعض الجهات من البلاد، في كل من سوس، وجبالة، وجبال غياثة وبني يزناسن، ولكن ذلك كان يتم باستعمال طرق ووسائل تقليدية، لا ترقى البتة إلى المقارنة مع ما كان عليه الأمر في مصانع السلاح الحديثة بأوربا. وهذا النوع من البنادق، هو الذي كان يُدعى «**مكحلة الشفرة**» أو «**المكحلة العربية**» التي تُزند بالحجر، وهي التي كانت أكثر انتشاراً من غيرها، سواء في التنظيمات العسكرية المخزنية، أو في صفوف مقاتلي القبائل. وكانت الطلقة النارية تنطلق منها بواسطة شرارة يُحدثها نوع من الحجر الخاص بالبنادق، يثبت في مطرقة صغيرة يحركها زنْبُرُكٌ (ressort) متى شاء مستعملها، وذلك بأن يضغط بأصْبُعه على الزِّنَاد، علماً بأن طولها كان يصل إلى متر وستين سنتيمتراً، وعيارها يبلغ حوالي 13 ميليمتراً[1].

1- A.E.P.C.P, Vol, 38 (1872-1873), p. 49.

- Michaux-Bellaire (Ed), le Habt, Arch. Mar., Vol. 17, 1911, p. 39 et suiv.

- Delhomme (cap), Les Armes dans le Souss Occidental, Arch. Berb., Vol. 2, 1917, pp. 123-129.

ثم ما دمنا قد ألمحنا إلى ما كان المخزن يُزود به جنوده وعساكره، لا بأس أن نشير هنا إلى مسألة احتبائهم، وانتعالهم، واعتمامهم، ولا سيما الفرسان منهم، على ضوء ما تسمح وتَجُود به مصادرنا في هذا الصدد. ويبدو أنه لم يكن هناك فرق كبير بين اللباس المدني واللباس العسكري، حيث لم تنفرد بعض الفرق العسكرية ببدلة خاصة بأفرادها، إلاّ ابتداءً من أواسط القرن التاسع عشر، أي بعد تأسيس «**جيش النظام**»، وإسناد مهام تكوينها وتدريبها إلى ضباط إنجليزيين وفرنسيين، أواخر العقد السابع من القرن المذكور[1].

هذا، وقد عَقَّب الفقيه **محمد بن الحسن الحجوي** على اندهاش صاحب كتاب: «**اختصار الابتسام عن دولة ابن هشام**»، وهو يشاهد، لأول مرة في حياته، في جزيرة **مالطة** أولاً، ثم في **القاهرة ومكة** بعد ذلك، جنوداً مسلمين مرتدين الزي العسكري الأوربي، ولكنهم اعتموا بالطربوش ذي اللون الأحمر، وذلك أثناء رحلته الثالثة إلى بلاد المشرق العربي، لأداء فريضة الحج سنة 1266 هـ/ 1850 م، حيث قال:

> «نقلت لك هذا ليعلم منه أن هذا اللبس لم يكن في المغرب يلبسه مسلم ولو عسكرياً، وأن العسكر الذي نظمه السلطان بالعرائش، وتطوان، لم يكن يلبسه حيث المؤلف دخلهما وأقام بهما، كما تقدم عنه، وإنما كان اللباس مغربياً، فرجية، وقفطان، وسروال، وعمامة، وطربوش أو شاشية، وجلابة، أو حايك، أو كسا أو سلهام. ولهذا، تعجب لما رءا لبس المسلمين خارج القطر لما في نفوس المغاربة من تعصب لقوميتهم وزيهم، وطابع بلادهم، فيظنون كل الكمال عندهم...» [2].

إن ما ذكره الحجوي هنا من أنواع ملبوس المغاربة في التاريخ أعلاه، المرط منه والمحيط، كان أفراد الجيش المغربي يحتبون ببعضه فعلاً، وبالخصوص قوادهم، ومن ثمة تقارب وتشابه ما كان يرتديه المدنيون منهم وكذلك العسكريون، اللهم ما كان من السيوف، و«الكوميات»، والشاشيات والتي كان ينفرد بها الخيالة دون غيرهم. ونفهم كذلك من كلامه أن المغاربة وقتئذ كانوا يقفون موقف الحذر والريبة من كافة أوجه ومظاهر التمدن الأوربي.

ومهما يكون الأمر، وكما سبق وأن أومأنا إلى ذلك أعلاه، فإن الجيش المغربي كمؤسسة

1- حول مسألة لباس المغاربة عامة في القرن التاسع عشر، يُرجع إلى:
بوشعراء، مصطفى، الاستيطان والحماية الأجنبية بالمغرب، المطبعة الملكية، الرباط، 1984، ج 1، ص. 38 وما بعدها.
العيساوي، فاطمة، جوانب من علاقة المخزن بالحرف، 1894-1822، د. د. ع، ك. أ. ر، 1989، ج 1، ص. 57 وما بعدها.
Laroui (A), Les Origines Sociales et Culturelles du Nationalisme Marocain، (1830-1912), Edt. Mas--péro, Paris, 1977, p. 30 et suiv.
Foucauld (Ch. De), Reconnaissance au Maroc, 1883-1884, Edit. Challamel, Paris, 1888 -.

2- الحجوي، محمد بن الحسن، اختصار الابتسام عن دولة ابن هشام، مخ. خ. و. م. م، رقم ح 113، ص. 434.

للدولة عبر العصور، قد ظل على حاله، لم تتطور قط صيغ وأسس تنظيمه، ولا أساليب تجنيد وتدريب وتكوين عناصره، ولا طرُق قتالهم ومُحاربتهم للعدو، اللهم ما كان قد تحقق من تطور وتحول في هذه الميادين، ولا سيما في بعضها كالسلاح الناري، والتاكتيك الحربي على عهد دولة السعديين، أيام عزها وامتداد نفوذها في النصف الثاني من القرن السادس عشر على الخصوص.

ومن اللافت للانتباه، في هذا الصدد، أن ما ذكره الباحث البولوني دزيوبنسكي (Dziubinski) في مقالته الموسومة ب:

«**الجيش والأسطول الحربي المغربيان على عهد سلاطين الدولة السعدية**»[1]، حول ترتيب الجنود، والعساكر، وحراك القبائل في ميادين القتال، وبالخصوص حين كانت تجري وقائع المعركة في منطقة سهلية والذي كان يتم حسب الطريقة المتبعة وقتئذ من طرف الأتراك العثمانيين، أي «ترتيب الخيالة على شكل نصف دائري على الطريقة التركية...»، نجد أن الجيش المغربي كان يطبق نفس الخطة التاكتيكية، على الأقل في عدد من معاركه، في حدود التسعينات من القرن التاسع عشر. وهذا ما نفهمه مِمَّا ورد في رسالة الأمير مولاي مَحمد إلى والده السلطان مولاي الحسن الذي كان قد أسند إليه أمر قيادة حركة جُهزت لتأديب فرقة بني عمرو من قبيلة زمور، بعد أن كان قد انضم إلى ركابه كل من قبيلة عامر، وحصين، والسهول، على أن يكون كبيرها القائد عبد الكبير الثوري الذي أمر:

> «... بالنهوض من التويرسة بجميع إيالته الصفافعة، ومن في حكمهم، والنَّزول معنا أيضا، وأمرني سيدي بالمفاوضة معه في ترتيب نزول بني حسن ومن معهم من حِينِيَّةِ الاجتماع والافتراق، وما أشار عَلَيَّ به نُنفذه، وأنه مأمور بالإشارة علي بما فيه مصلحة، وأن يبصرني بأولائك إلاَّ الضرب، والنهب، والنهوض فلا نقدم على شيء منها إلا بأمر شريف...»،

حيث أطلع السلطان على الكيفية التي تَمّ بها توزيع حراك القبائل في الميدان، فكان :

> «نزول السهول من الناحية الجنوبية بالنسبة للمحلة السعيدة، ثم حْصِين برمتِهم، ثم التْزُوطِي، والقائد بوعزة السَّلاَّمي في قِبْلَةِ المحلة،

1- Dziubinski (A), L'Armée et la Flotte de Guerre Marocaine à l'Epoque des Sultans de la Dynastie Saadienne, Hesp-Tam., Vol ? 13, fasc. Uniq. p. 76 et suiv.

ويليها لناحية الشمال بالنسبة المذكورة ابن الشَّيْحَني، والقائد لحسن بن عزة معاً في محل واحد، ثم بن العروسي على حدته، ثم الثّوري، فجاء تخييمهم على نصف دائرة، وبينهم وبين المحلة قدماً يمشي الراكب ثلث ساعة...»[1].

ومن الملاحظ، في هذا الصدد، أنَّ معظم الأخباريين المغاربة الذين تحدثوا في كتاباتهم عن طريقة قتال المغاربة وسير عملياتهم الحربية في ميادين القتال، قد دأبوا على ترديد قولة ابن خلدون في مقدمته عن «**قتال الزحف**» وقتال «**الكر والفر**» كالناصري مثلاً، أو الفقيه المؤرخ علي بن محمد السملالي السوسي الذي كان دون مُشاهداته وارتساماته، أثناء الرحلة التي قام بها إلى مدينة وجدة والتخوم الشرقية، في ركاب صنو السلطان مولاي الحسن، الأمير مولاي عرفة سنة 1301هـ/ 1884م في مؤلفه «**مُنتهى النقول ومشتهى العقول**»[2].

والحق أن المغاربة قد ظلوا يتوارثون، جيلاً بعد الآخر، تقاليد وخطط السلف الحربية، دون أن يطرأ عليها أدنى تغيير أو تحول، فتتخذ بطولات الأجداد وآثارهم، وأقوال العرب المأثورة، ومذاهبهم وحِكَمهم في هذا المجال وغيره، مثلاً أعلى، وأُنموذجاً أسمى، ينبغي الاقتداء به والسير على هديه.

ونجد لهذه المرجعية أصداء وآثار عديدة ومعبرة في الوثائق المخزنية، وكذلك في كتابات الْمُتَفَقِّهين من المغاربة في القرن التاسع عشر. ومن ذلك ما نقرأه في رسالة السلطان مولاي عبد العزيز بن الحسن (1311-1326/ 1894-1907) إلى أخيه وخليفته بمدينة مراكش الأمير مولاي العباس الذي يبدو أنه كان قد خاطر بنفسه وبأرواح من كان في رفقته من الجند والحراك، حيث توغل على رأسهم في عمق أراضي قبيلة الرحامنة المنتفضة ضد المخزن وقتئذ، دون التفكير في اتخاذ ما كان يلزم من الاحتياطات لضمان خط الرجعة عند الاقتضاء، حيث خاطبه قائلاً:

«من المقرر المسلم بالإجماع أن الحرب خداع، ومعناه أنه كلما وجد الإنسان انتهاز فرصة، وتجريع العدو غصة من غير كفاح ولا قعقعة سلاح إلاّ وجنح لذلك، وسلك هاتيك المسالك، حتى **تكون السلامة مغنمة**

1- خ. س، مح. ح رقم 267، الوثيقة بتاريخ 16 ذي القعدة 1307/ 4 يوليوز 1890.
2- الناصري، أحمد بن خالد السلاوي، كتاب الاستقصا...، م. س، ج 9، ص. 87.

والظفر مكسبة، لأن المحارب المتدبر العارف المتبصر كالتاجر، فإنه إن لم يبع بالرِّبح، فلا أَقَلَّ من رأس المال...»[1].

وتابع السلطان حديثه على هذا المنوال، مُستدلاً بِمَثل من أمثال العوام في فضائل ومحاسن التريث والتأني، قبل التوغل في أراضي الخصم تارة، وبمواقف بعض مشاهير فرسان العرب، والعارفين بالحرب ومكابدها، كالْمُهَلَّب ابن أبي صُفرة وما صدر عنه من قول لَمَّا استعجله أميره في الهجوم على الخوارج تارة أخرى[2].

هكذا، نكون قد قدمنا لمحة عن جوانب من استعمالات الفرس الحربية ومؤسسة الجيش في مغرب القرن التاسع عشر، إسهاماً منا في أشغال اليوم الدراسي الذي نُظِّمَ بمناسبة انعقاد الدورة الثانية لمعرض الفرس بمدينة الجديدة.

1- خ. س، مح. م. ع. ع، الوثيقة بتاريخ 12 ذي القعدة 1312.

2- هو أبو سعيد ظالم ابن سراق الأزدي العتكي، دُعي المهلب ابن أبي صفرة (7-83 /628-708 م)، من أشهر رجال السياسة والحرب على عهد دولة بني أمية الأول، ناصر عبد الله ابن الزبير أول الأمر، ثم انحاز إلى دعوة عبد الملك ابن مروان، حيث بايعه بالخلافة، وحارب الخوارج الأزارقة طيلة تسع عشرة سنة بكاملها، قبل أن يهزمهم وينْزل بساحتهم أوجه التعذيب والتقتيل. وقد نال عن ذلك ولاية بلاد خراسان التي وصلها سنة 79 ه، والتي وافته منيته بها أربع سنوات بعد هذا التاريخ.
أنظر : الزِّرَكْلي، خير الدين، الأعلام...، بيروت، 1997، الطبعة 12، ج 7، ص. 315.

قائمة الرموز المستعملة في البحث

1) باللغة العربية:

خ. س	:	الخزانة الحسنية
خ. و. م. م	:	الخزانة الوطنية للمملكة المغربية
م. و. م. ر	:	مديرية الوثائق الملكية بالرباط
ك. أ. ر	:	كلية الآداب بالرباط
مخ	:	مخطوط
د. د. ع	:	دبلوم الدراسات العليا
مح	:	محفظة
مح. ح	:	محفظة حسنية
مح. م. ع. ع	:	محفظة مولاي عبد العزيز
مح. م. ع. ح	:	محفظة مولاي عبد الحفيظ
ك	:	كناش
ج	:	جزء
م. س	:	مرجع سابق.

2) باللغة الفرنسية

A.G.V	:	Archives du Ministère de la Guerre، Vincennes.
A.E.P	:	Archives Affaires Etrangères، Paris.
C.P	:	Correspondance Politique.
Arch. Mar	:	Archives Marocaines.
Arch. Berb	:	Archives Berbères.
HESP. Tam	:	Hespéris-Tamuda.
Edit	:	Edition
Vol	:	volume.
Rapp	:	Rapport.
Suiv	:	Suivant.
Cdt	:	Commandant.
Cap	:	Capitaine.
Lieut	:	Lieutenant.

الفرس في المخيل الشعبي

ذ. أحمد البوزيدي(*)

تقديـم:

أريد من خلال هذا العرض المتواضع أن أقوم بمحاولة لتحديد طريقة الشعبيين أي عامة الناس، من خلال بعض ما وصلت إليه من أشعار زجلية، في تخيلهم للفرس، على اعتبار أن غالبية هؤلاء العامة، لا يملكون ماضيا ولا حاضرا، الإمكانيات المادية التي تمكنهم من امتلاك فرس، ذلك أن امتلاك فرس من الأفراس ووجوده بخيمة أو بدار هو في واقع الحال في المخيل الشعبي ضمانة لتدفق الأرزاق على هذه الخيمة أو الدار مصداقا لقوله(ص): «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة»[1]. وقد قام الدميري بشرح معنى هذا الحديث النبوي، فقال إن الخير «ملازم لخيل كأنه معقود فيها»[2].

وقد حاولت تقسيم الموضوع إلى محورين كبيرين، حاولت في المحور الأول تتبع أخبار الخيل في بعض المؤلفات مع التركيز على طبيعة هذا الصنف من الجياد الذي يعرف في التاريخ بالفرس العربي لأنتهي بالحديث إلى الوقوف على وصول هذا الصنف إلى المغرب هذا البلد الأمين، وبعد ذلك سأحاول استعراض اهتمام الأشراف بالفرس لأهميته في الدفاع عن هياكل ونظم الدولة.

أما المحور الثاني من العرض فقد خصصته لنظرة عامة الناس للفرس من خلال ما أسميته بالمخيل الشعبي بالاعتماد على بعض المقطعات الزجلية باللهجتين المغربيتين المتداولتين في الحياة اليومية (الدارجة والأمازيغية). ويبقى السؤال المطروح الذي سنحاول الإجابة عليه في هذا العرض المتواضع هو كالتالي: ما هي طبيعة وخصائص هذا الصنف من الجياد الذي

(*)- ذ. أحمد البوزيدي : أستاذ باحث جامعة محمد بن عبد الله - فاس

1- هذا حديث نبوي صحيح ورد نصه في كتاب الصحاح مثل صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وابن ماجة وغيرهم من المهتمين بجمع الأحاديث النبوية.

2- الدميري (محمد بن موسى بن عيسى): حياة الحيوان الكبرى، قدم له ووضع حواشيه: أحمد حسن بسج. طبع دار الكتب العلمية، بيروت، ط 1، 1994، ج 1، ص 432.

أصبح يعرف عند المهتمين والباحثين في تاريخ الجياد بالفرس العربي ؟ وكيف ومتى وصل هذا الصنف إلى المغرب ؟ ولماذا اهتم سلاطين وملوك الأشراف في عهد السعديين والعلويين بهذا الصنف من الخيل ؟ ثم لماذا كانت بعض العائلات بمختلف جهات المغرب تتسابق لامتلاك هذا الصنف من الجياد الذي بات يعرف بالفرس المغربي ؟[1]

I. مميزات وخصائص الجواد المغربي

1. الفرس العربي في التاريخ

الفرس لغة هو واحد الخيل، وسمي الفرس بالخيل لأنه يختال في مشيته[2]. وهذا ما ذهب إليه أهل التفسير الذين فسروا الآيات القرآنية التي ذكر فيها الله تعالى كلمة الخيل سواء تعلق الأمر في الآيات الخاصة بامتلاك الخيل للزينة[3] أو في الآيات القرآنية التي وردت فيها كلمة الخيل للحرب والجهاد في سبيل الله.

وسمي الفرس[4] فرسا لأنه يفترس الأرض بسرعة مشيه[5]. وأكدت الأبحاث الخاصة بالجياد في التاريخ العربي أن وجود الفرس العربي بأرض العرب قديم قدم الإنسان بهذه البلاد، وكان يتمتع بوضع خاص في نظر مالكه. حيث يفضله في بعض الأحيان على أفراد أسرته. وفي طبع الفرس الزهو والخيلاء والسرور بنفسه والمحبة لصاحبه، ومن أخلاقه الدالة على شرف نفسه وكرمه أنه لا يأكل بقية علف غيره، ومن علو همته أن سائسه لا يدخل عليه إلا بإذن وهو أن يحرك المخلاة (العلافة) فإن حمحم الفرس دخل وإن دخل السائس ولم يحمحم شد عليه[6]. ومن طبعه أيضا لا يشرب الماء إلا كدرا، فإن رآه صافيا كدره.

أما الصفات التي يتميز بها الفرس العربي، فقد حددها أيوب بن القرية من رجال القرن الثاني الهجري (ق8م) في حوار له مع الحجاج بن يوسف الثقفي الذي سأله عن الصفات التي يجب أن تتوفر في الجواد الجيد، فقال: القصير الثلاث الطويل الثلاث، الرحب الثلاث، الصافي الثلاث، وقد طلب الحجاج من أيوب أن يفصل حديثه فقال: أما الثلاث القصار فالظهر والساق

1- نحبذ استعمال لفظ الفرس المغربي، على الاستعمال الثنائي، الذي يميز فيه أصحابه الفرس العربي والفرس البربري أو الأمازيغي بالمغرب، خاصة أن مواصفات الفرس العربي بالمغرب لا تختلف في شيء عن الفرس البربري.
2- صالح عوض (محمد محمد)، مجلة لمناهل. المجلد 68. العدد 2. أكتوبر 2006. ص135.
3- انظر الآية رقم 14 من سورة آل عمران، والآية رقم 8 من سورة النحل.
4- الفرس، يذكر ويؤنث، انظر: ما ورد في هذا المعنى في لسان العرب لابن منظور. مادة فرس من المجلد6.
5- الدميري (محمد بن عيسى)، م.س، ج2، ص285.
6- الدميري (محمد بن عيسى)، م.س، ج2، ص289.

والعسيب (عظم رأس الذنب)، وأما الثلاث الطوال فالأذن والعنق والذراع، وأما الثلاث الرحبة فالجبهة والمنخر والجوف، وأما الثلاث الصافية فالأديم وهو جسد الفرس، والعينان والحفار؛ وقد جمع بعض الشعراء هذه الصفات في بيتين من الشعر فقال:

وقد اغتدى قبل ضوء الصباح ... وورد القطا في الغطاط الحثاث

بصا في الثلاث، عريض الثلاث ... قصيـــر الثلاث طويل الثــلاث[1]

وقد اهتم عدد من علماء الأمة الإسلامية منذ القرن الثالث الهجري (9م) بتأليف عدد من الكتب دونوا فيها أخبار الجياد العربية، نذكر من هؤلاء على سبيل المثال لا الحصر«كتاب الخيل» لعبد الملك بن قريب الأصمعي المتوفى سنة 216هـ/831م، وكتاب الفروسية والخيل لمحمد بن أبي حزام (توفي والي 246هـ/860م)، وكتاب «أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام» لهشام بن محمد لكلبي المتوفى في مطلع القرن الثالث الهجري (حوالي 819م). وخلال القرون اللاحقة ظهرت عدة مؤلفات حرص أصحابها على رصد أخبار الخيل والفرسان في التاريخ العربي الإسلامي، وتتميز هذه الكتب بالنقل لمباشر من المؤلفات السابقة.

وفي العصور الوسطى ظهرت بعض المؤلفات في المغرب حيث كان علماء المغرب يسيرون في مؤلفاتهم حول الخيل والجياد على غرار ما خلفه زملاؤهم بالمشرق، ومن علماء المغرب الذين ألفوا في هذا الميدان أذكر على سبيل المثال لا الحصر ابن القطان علي بن محمد بن عبد الملك، المتوفى سنة 628هـ/1230م[2]، وكان هذا الفقيه العالم معاصرا ليعقوب المنصور الموحدي. فقد ألف ابن القطان كتاب «أسماء الخيل وأنسابها»، والكتاب في مجمله لا يختلف عن المؤلفات السابقة التي ظهرت في المشرق العربي.

ومن الملاحظ أن هؤلاء العلماء حرصوا في مؤلفاتهم على ذكر سلسلة من الأحاديث النبوية التي كان الرسول صلى الله عليه وسلم يمجد من خلالها الخيول والجياد. وجل هذه الأحاديث كان الرسول يركز فيها على الروح القتالية للمسلم. فقد روى ابن مسعود أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: «الخيل ثلاثة ففرس للرحمان وفرس للإنسان وفرس للشيطان. فالفرس الأول خاص للقتال في سبيل الله، والثاني يرتبطها الإنسان فهي ستر له من الفقر، أما الثالث الفرس الذي يستعمل للقمار والرهان[3]. وروي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن

1- خريف (محي الدين)، الخيل في التراث العربي الشعبي. موضوع منشور بالحياة الثقافية التونسية العدد 46، أعادت مجلة الجواهر الفاسية نشره، نظر الجواهر العدد:19 ـ نونبر 1990 ـ ص48.

2- بلمقدم (رقية)، مادة ابن القطان. معلمة المغرب. المجلد 20. 2004. صص6671 - 6672.

3- صالح عوض (محمد محمد)، الخيل، م.س، ص138

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «علموا أولادكم السباحة والرماية والفروسية». ومن ذلك قوله(ص) أن الملائكة لا تحضر من اللهو إلا ثلاثة من بينها إجراء الخيل».[1]

وهكذا نلاحظ من عدد من الإشارات التي أوردها عدد من المؤلفين في مواضيع الخيل والجياد بصفة عامة أنهم كانوا يركزون على ما ورد في الموضوع من أحاديث نبوية لإضفاء المشروعية على هذا العمل، ومن بينها أن الملائكة تحضر احتفالات جري الخيل.

فمتى وصل هذا الصنف من الجياد إلى المغرب، وما هي الصفات التي يلتقي فيها الحصان العربي بالحصان الإفريقي المغربي ؟

لقد تمكن عدد من الباحثين منذ مطلع الثمانينات من القرن الماضي من العثور من خلال الأبحاث الاركيوليوجية ببعض جهات الشمال الإفريقي على آثار الفرس الإفريقي المغربي بموقع البروج. ورجحوا تاريخ وجود الفرس بهذا الموقع بحوالي 30.000 سنة من وقتنا الحاضر[2]. وبالرغم من تجاهل بعض الباحثين الاركيولوجيين من أمثال «كبريل كامبس» وغيره في نتائج الأعمال المشار إليها[3] فإن الدلائل تؤكد أن الباحثين في تاريخ الفرس الإفريقي باتوا على استعداد لإعادة النظر في كل ما يقال من أقوال حول ظهور الفرس بالشمال الإفريقي.
وعلى كل حال، فإن النقوش الصخرية كشفت بشكل عملي بأن الفرس الإفريقي المغربي كان موجودا بهذا البلد الأمين منذ منتصف القرن الثاني قبل الميلاد.[4]

ومن الأوصاف التي عرف بها هذا الفرس الإفريقي المغربي أنه يرتبط بمالكه مثل كلب أليف حسب تعبير «سطربون»[5]، فهو سهل الانقياد، مرن الصهوة.[6]

وإذا كانت أقوال الباحثين متضاربة حول الطريق الذي وصل به هذا الصنف من الحصان إلى الشمال الإفريقي[7] فإنهم لم يختلفوا حول مشاركة فرق الفرسان الأفارقة في معظم الحروب

1- الدميري (محمد بن عيسى)، م.س، ج1، ص435.
2- بعدما حددت الباحثة شايد سعودي ياسمينة سنة 1983م تاريخ ظهور الفرس ب10.000 ق.م. أكدت البعثة التي قادها باكطاش وإيزمان سنة 1984 بأن ظهور الفرس، بشمال إفريقيا يعود إلى حوالي 30.000 سنة.
3- من الذين عارضوا هذا الرأي الباحث الفرنسي كبرييل كامبس (G. Camps).
4- البوزيدي (سعيدà الخيليات بشمال إفريقيا. 2009. ص1.
5- سطرابون (Strabon) جغرافي إغريقي من رجال النصف الأول من القرن الأول قبل الميلاد.
6- البوزيدي (سعيد)، م.س، ص1.
7- فيما يتعلق بالعهدين القرطاجي والروماني بإفريقيا الشمالية، انظر:
Julien (Ch. André) : Histoire de l'Afrique du Nord. Paris، 1975. T1. pp. 63-255.

التي خاضها القرطاجيون والرومانيون بعدهم بالشمال الإفريقي، وإلى هذه الفرق الإفريقية يعود الفضل في تحقيق الانتصارات القرطاجية والرومانية على القبائل الثائرة ببلاد الشمال الإفريقي، ويظهر أن الفتوحات الإسلامية اعتمدت نفس التقليد في الاعتماد على فرق من الفرسان الأمازيغيين خاصة أن الطبع البدوي للمغاربة لا يكاد يختلف كثيرا عن الطبع البدوي للوافدين من المشرق. يضاف إلى هذا أن الصفات التي يتوفر عليها الفرس المغربي، هي تقريبا نفس الصفات التي يتوفر عليها الفرس العربي[1]. ونعتقد أن هذا التشابه بين طبائع الفوارس والجياد من المحليين والوافدين هو الذي جعل جل الباحثين يتحدثون عن الفرس المغربي (le cheval barbe) رغم أن هذا الأخير أقل «رشاقة من الفرس العربي الأصيل، وصدره عريض ومتناسق مع عرض المؤخرة... وظهره أقصر من السلالات الأخرى»[2].

وعلى كل حال، فإن التاريخ يعلمنا بأن سلاطين وملوك دولة الأشراف خاصة في عهد السعديين والسادة العلويين، قد أولوا عناية خاصة للاهتمام بالفرس، وكانوا يبذلون النفيس في امتلاك الجياد الجيدة. فقد نقل السلطان مولاي عبد الحفيظ في كتابه «داء العطب قديم»[3] ما ورد في رسالة من السلطان أحمد المنصور السعدي (ت سنة 1012هـ) إلى ابنه وخليفته بمراكش الأمير أبي فارس، ما يلي: «وأوصيكم أعزكم الله أن تتفقدوا فرسنا الأحمر الصغير، ولا تتركونهم يعطونه الأكل كثيرا حتى لا يكثر لحمه ويزداد ألمه، بل انظر له من يركبه كل يوم ولا ينزع السرج عن ظهره بياض النهار كله، أو أعطوه لصاحب المسرة[4] يركبه في ذهابه وإيابه، وأوصوه ألا يركبه غيره ولا ينزل عن ظهره النهار كله»[5]. وإن كان لنا من شيء نستخلصه من هذا النص هو العناية التي كان السلطان أحمد المنصور السعدي يوليها لفرسه الذي خلفه وراءه بمراكش.

أما في عهد الأشراف العلويين، فإن كتب التاريخ مثل «الاستقصاء» للناصري و«المنزع اللطيف» للعلامة ابن زيدان وغيرها تزخر بإشارات متعددة تتفق كلها على القول باهتمام سلاطين وملوك الدولة العلوية الشريفة بالجياد، لدورها الكبير في إعادة بناء وحدة الوطن

1- تتفق كل المصادر التاريخية على القول بأن الفرس وصل من المشرق إلى بلدان شمال إفريقيا الغربية ومن بينها طبعا المغرب عن طريق مصر.

2- الطويل (محمد حجاج)، مادة الخيل. معلمة المغرب. المجلد 12. 1421هـ/2000 م. ص3872.

3- «داء العطب قديم» كتاب مخطوط ألفه السلطان مولاي عبد الحفيظ العلوي ورقم الكتاب في الخزانة الحسنية هو 11400 من حرف الدال.

4- المسرة : بستان من بساتين السلطان أحمد المنصور بمدينة مراكش. انظر: ـ الناصري (أحمد بن خالد)، الاستقصا. ج5، ط. الدار البيضاء 1955، ص142.

5- السلطان العلوي مولاي عبد الحفيظ بن الحسن. «داء العطب قديم»، مخطوط الخزانة الحسنية رقم 11400 ورقة 42.

والحفاظ عليها، ولما استتب الأمر للسلطان مولاي إسماعيل اتخذ من مدينة مكناس عاصمة للمملكة، وعُرفت مدينة مكناس بمبانيها الضخمة التي خلفها السلطان مولاي إسماعيل (1672-1727). ونتوقف عند «قصر الخيل» الذي يقول عنه ابن زيدان: «وجعل له إسطبلا لربط خيله وبغاله وكان طوله فرسخ (حوالي ثماني كيلومترات) مسقف على سواري وأقواس هائلة كل فرس مربوط في قوس». ويقدر عدد الجياد التي كانت تربط في هذا الإسطبل بحوالي 12 ألف فرس.. وفي هذا الإسطبل ساقية ماء مقبوّة الظاهر وأمام كل فرس محل مفتوح كالمعدة لشربه.. وفي الإسطبل قبب متعددة لوضع سروج الخيل على أشكال مختلفة، وفي هذا الإسطبل هري عظيم لخزن الشعير المعد لعلف الجياد[1]. ويحكي العلامة ابن زيدان أن للسلطان مولاي إسماعيل ولوع تام ومحبة بالغة في الخيل، وكان السلطان يبذل الأموال الطائلة في جلبها وصيانتها. وقد أفاض الفقيه العربي بن عبد السلام الفيلالي في وصف قصر الخيل، فقال:

أنا قصر العتاق من الجيـــاد — بنانـي اللّه فـــي نحـر الأعـادي
وكيف لا أصول علـى المبانـي — وإسماعيل قد أسمى عمـادي
أدام اللّه ملكـه فـي هنـــاء — وأعقابـه إلى يوم الـتنـــادي[2]

وكان مولاي إسماعيل يهتم كثيرا بالصافنات الجياد ويحضر الموكلين بها ويباحثهم في أجناس خيله ويفسر لهم أبا كل فرس وجده وجدته على اختلاف أصنافها، ويعرفهم بأنسابها[3]. وهكذا نلاحظ أن السلطان مولاي إسماعيل وضع الأسس التي يجب على المكلفين بالخيل اتباعها من بعده. وقد تطرق العلامة ابن زيدان في كتابه «العز والصولة في معالم نظم الدولة»[4] لبعض هذه الأمور الخاصة بالخيل، ولن نبالغ في شيء إذا قلنا أن سلاطين وملوك الدولة العلوية بعد عهد السلطان مولاي إسماعيل طوروا، كل حسب عصره، مسألة الاهتمام بالخيل، وكانوا يحرصون على تدريب الأمراء على ركوبها ومحبتها والتعامل معها بالإيجاب. وما تزال الذاكرة تحتفظ بتلك الصورة الباهية للأمير مولاي الحسن (الحسن الثاني رحمه الله) وهو راكب على فرس في الدفاتر المدرسية في بداية عهد الاستقلال.

1- ابن زيدان (عبد الرحمان): المنزع اللطيف في مفاخر المولى إسماعيل بن الشريف. تقديم وتحقيق: عبد الهادي التازي. البيضاء 1993، ص261.

2- ابن زيدان (عبد الرحمان)، م.س، ص262.

3- نفسه، ن.م، صص261-262.

4- ابن زيدان (عبد الرحمان): العز والصولة في معالم نظم الدولة. ج1. قدمه للطبع المرحوم عبد الوهاب بنمنصور، الرباط، 1962، صص145 فما بعد.

II. الفرس في المخيل الشعبي

أقصد بالمخيل الشعبي، التصور الذي يخالج عامة الناس الذين كانوا يكتفون من الخيل بتلك الرؤيا العابرة لعجزهم عن امتلاك فرس يكون مفخرة لهم واعتزازا بين الأقران. وإذا كانت قلة ذات اليد قد منعت الأكثرية الساحقة من عامة الناس من امتلاك فرس يكون مصدر رزق وستر لهم، فإن هذا لم يمنعهم من إشباع رغبتهم الدفينة حول الفرس في حفظ بعض الأشعار الزجلية، إما بالدارجة أو الأمازيغية. ولا أدعي أنني قد تمكنت من تغطية كل مناطق المغرب، فهناك مئات القصائد لم أتمكن من الحصول عليها بالدارجة والأمازيغية كلها تتغنى بأهمية الفرس في حياة عموم الناس، ولكنها تكشف لنا عن الطريقة التي يتخيل بها الناس الشعبيون هذا الحصان الذي أضحى مفخرة لكل من يملكه. وسأقتصر على بعض النماذج من هذه القصائد.

1ـ بعض الأشعار بالدارجة:

وقبل أن أتناول بالتحليل بعض الأزجال الدارجة لابد أن أشير أن بعض المجموعات الفنية مثل مجموعة «تاكدا»و«السهام»، قد دونت في بعض ألحانها أهمية الفرس إلى جانب السلاح والبراد في حياة عامة الناس. وأشير إلى قصيدة تنتشر بمراكش يقول مطلعها: «أشكون الدايز في المراح مول البركي والسلاح». والبركي كناية عن الفرس، حيث أن ظهور الفرس في المخيل الشعبي مرتبط بالسلاح. وفي هذا الإطار يشير الشاعر الصحراوي بركة السلامي في قصيدة طويلة إلى ضرورة تسلح الشخص القادر على حمل السلاح بفرس وسلاح فقال:[1]

«يوم يكون الشر والأهوال يا لبلال — ركب كـــارح لا تركـــب جديـــع ملهـــوب
لا تكبل حملة تجاهل يا لبـــلال — من كبل حملة تجهال يا لبلال يديه واد مكبوب»

ونصيحة الشاعر للفارس للمشاركة في الحرب وأهوالها أن يمتطي فرسا عتيقا كريما، عوض جديع وهو الفرس الصغير الضعيف؛ وكلمة كارح، وردت في فقه اللغة للثعالبي بحرف القاف.[2] وقال الثعالبي إن القارح من الخيل مثل البازل من الإبل، ويعني الفرس ابن الثانية من عمره.[3]

1- مطلع هذه القصيدة هو:
بِدتُ بسم الله المتعال يا لبلال — والصلاة على نبينا عداد لعشوب

2- الثعالبي (عبد الملك بن محمد)، فقه اللغة وسر العربية. مطبعة الاستقامة، القاهرة، دون تاريخ. ص46.

3- ابن منظور، لسان العرب. المجلد 2، مادة قرح. ص560.

أما القصيدة الثانية فهي للشاعر حمو كروم، من رجال القرن الثاني عشر الهجري/18م[1]، فقد كان على هذا الشاعر أن يقطع مسافة تقدر بحوالي 800 كيلومتر ذهابا وإيابا من محاميد الغزلان إلى مكناس في ظرف لا يتعدى ثلاثة أيام قبل العودة إلى المحاميد، لربط الاتصال بالسلطان مولاي إسماعيل في محاولة لإنقاذ بعض إخوته من موت محقق، فما كان عمله إلا أن توجه بالخطاب إلى فرسه فقال[2] هذه القصيدة التي مطلعها:

أفرسي نحتـال من غضـا (غدا)
شور بلاد أم العلوج[3] أفرسي نحتال من غـدا
غدا يا فرسي نعولوا، واش ثلا لينا نكولوا والسلطان اعترض أهيا
نعمل طرحـا مكردا والحوافر قد لمدود واحتال أهيا
داك الدير اللكبالتي من مكناس إبان أهيـا.

وتحكي الرواية الشفوية أن الفرس الذي شغله الشاعر حمو كروم تمكن من الذهاب إلى مكناس، حيث قابل السلطان مولاي إسماعيل وجاء برسالة العفو منه على بعض إخوته قبل فوات الأوان الذي حدده خليفة السلطان، وبذلك تضخمت مكانة الفرس في خيال سكان الجهات الجنوبية.

2ـ الفرس في المخيل الأمازيغي

لا يختلف وضع الفرس عند الشاعر الأمازيغي بمنطقة الأطلس المتوسط على ما كان عليه عند باقي عامة المغاربة في مختلف الجهات. والإشارات التي حاولت جمعها بعجالة بمنطقة الأطلس المتوسط تتميز بتعدد اسم الفرس، ويتجلى هذا التعدد كما يلي:

1ـ أنحاسي 2ـ أبركان 3ـ أراس أحرضان. 4ـ أراس أحرّي. 5ـ أحمامي.
6ـ أنواري. 7ـ أحذاذي.

ويعتقد مخبري أن قبائل المنطقة تميل إلى امتلاك الفرس أنحاسي، لأنه يتميز بلونه المميز حيث تختلط على جسمه نقط بيضاء إلى جانب نقط سوداء تزيده بهجة وجمالا، فقال الشاعر الأمازيغي:

أد\سيِ إمغـورْوُذْمْ ونحـاسْ ثازْدايـنْ أدسـدُونْ خـفُو أقاسي

1- حمو كروم: من شعراء قصر أولاد أحمد بمحاميد الغزلان إقليم زاكورة.
2- اختصرنا هذه القصيدة، واقتصرنا على الأبيات التي يشير فيها الشاعر حمو كروم إلى فرسه الذي سافر عليه إلى مكناس.
3- قصبة أم العلوج: ما تزال أطلالها قائمة إلى اليوم على مشارف الصحراء بالجنوب الشرقي لمحاميد الغزلان.

إلى أن يقول :

أثَـكمـارث مـيـوْظ وْزارْ تيسيرويـن

وتنحصر مواضيع القصائد لزجلية بالأمازيغية في وصف الفرس، وهي أوصاف لا تختلف في عمقها ومضامينها عن الأوصاف التي نصادفها في القصائد العربية زجلية كانت أو غيرها.

وهناك الكثير من القصائد عند القبائل الأمازيغية تمجد الفرس، وتستغرق الكثير من الوقت في أوصافه وعلائقه بمالكه.

وهكذا يمكن أن نستخلص مما سبق أن للفرس حضور قوي في تاريخ الشعوب، العربية والمغربية، وكان الاهتمام بهذا الحيوان عند سلاطين وملوك دولة الأشراف اهتمام متميز، ومن ذلك على سبيل المثال أن السلطان مولاي إسماعيل كان يباحث المشرفين على تربية خيوله حول أصول هذه الخيول.

وقد حرص المغاربة بمختلف جهات البلاد على امتلاك الأفراس الجيدة، ونظموا قصائد بالعربية والدارجة والأمازيغية لتمجيدها وتكريمها.

دراسة لما وصل إلينا من تراث الخيل في العربية

ذ. محمد عزير شمس(*)

إن ما وصل إلينا من تراث الخيل بالعربية قليل بالنسبة لما أُلِّف فيها خلال أربعة عشر قرناً، ومع ذلك فالموجود منه مخطوطاً ومطبوعاً كثير، وهو قسمان : أولهما : كتب ورسائل مستقلة تناول فيها مؤلفوها جوانب مختلفة تتعلق بالخيل، والثاني : فصول وأبحاث ضمن الكتب والمؤلفات في مختلف الفنون تتعلق بالخيل والعناية بها وأحكامها . ولا يكاد يخلو علم من العلوم الشرعية واللغوية والأدبية من فصول في هذا الباب. وسوف أتحدث أولاً عن هذا القسم ثم أتناول الكتب والرسائل المفردة، وأذكر اتجاهات المؤلفين فيها .

ولا يخفى على باحث في التراث العربي الإسلامي أن للخيل مكانة في القرآن الكريم والسنة النبوية، فقد ورد ذكرها في عدة آيات منها قوله تعالى : ﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوَّمة والأنعام والحرث، ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ﴾ [آل عمران : 14].

وقوله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم ﴾ [الأنفال : 60].

وقوله تعالى : ﴿ والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ﴾ [النحل : 8].

وقوله تعالى في ذكر سليمان عليه السلام واهتمامه بالخيل : ﴿ إذ عُرض عليه بالعشي الصافنات الجياد، فقال إني أحببتُ حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت بالحجاب. ردُّوها عليَّ فطفق مسحاً بالسوق والأعناق ﴾ [ص : 31-32].

وقوله تعالى : ﴿ والعاديات ضبحاً. فالموريات قدحاً. فالمغيرات صبحاً. فأثرن به نقعاً. فوسطن به جمعاً ﴾ [العاديات : 1-5].

وجاء المفسرون فأوردوا في تفسير هذه الآيات أبحاثاً وأخباراً وأحكاماً وفوائد تتعلق بالخيل،

(*)- ذ. محمد عزير شمس : أستاذ باحث جامعة أم القرى - المملكة العربية السعودية

ويمكن مراجعة تفسير القرطبي[1]، و«الدر المنثور»[2] للسيوطي وغيرهما من كتب التفسير لمعرفة هذه الفوائد والأحكام. ولا مجال هنا لتفصيل القول فيها.

وأما ما ورد من الأحاديث عن النبي صلى الله عليه و سلم، فلا يكاد يخلو منها كتاب من كتب السنة المشهورة، وإذا أراد أحدٌ منا أن يطلع عليها مجتمعةً فليراجع «جامع الأصول» لابن الأثير (45/5 -53)، و«مجمع الزوائد» للهيثمي (258/5 -265) و«كنز العمال» لعلي المتقي الهندي (332/4-334)، و«بديع التذكار فيما ورد في فضل الخيل من الأخبار» للدمياطي (ت 705 هـ) [مخطوط في مكتبة خدابخش بالهند] و«جرّ الذيل في علم الخيل» للسيوطي (ت 911 هـ) [منها ثلاث نسخ في الخزانة العامة بالرباط، وأخرى في غيرها].

وقد تناولت هذه الأحاديث ما جاء في صفات الخيل وفضلها وارتباطها وذكر خيل النبي صلى الله عليه وسلم، وما يستحب من ألوان الخيل وما يكره منها، وما ورد في تأديب الخيل وإكرامه والدعاء لها والمسابقة والرهان بها، والنهي عن خصائها وإنزاء الحُمر عليها، وسهم الفرس في الجهاد، وكيف يُعرف الفرس العتيق من غيره، وغير ذلك من الموضوعات. ومن أشهر الأحاديث الواردة في الباب : قوله صلى الله عليه و سلم: « الخيل معقودٌ في نواصيها الخيرُ إلى يوم القيامة ». وقوله صلى الله عليه و سلم : « الخيل لثلاثة : لرجلٍ أجرٌ، ولرجلٍ سِتْر ، ولرجلٍ وزرٌ ... » ثم ذكر هؤلاء وبيانهم.

وروى النسائي (6/ 217 - 218) عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال : لم يكن أحبَّ إلى رسول الله بعد النساء من الخيل. ويطول بنا الكلام لو استعرضنا هذه الأحاديث وما تكلم به المؤلفون في شرحها في كتبهم المعروفة.

ننتقل الآن إلى كتب الفقه فنرى أنها بصفة عامة تبحث عن الأحكام المتعلقة بالخيل في أبوابٍ مختلفة منها، ولا يخلو منها كتاب من الكتب المعتمدة في المذاهب الأربعة وفي الفقه المقارن.

1- 5 / 50 - 53 ، 10 / 57 - 60 ، 12 / 278 - 288 ، 18 / 190 - 198 (طبعة التركي) .
2- 3 / 481 - 482 ، 7 / 165 - 185 ، 9 / 13 - 16 ، 12 / 567 - 570 (طبعة التركي) .

ومن أشهر الموضوعات التي تناولوها بالبحث : حكم الزكاة فيها، وحكم أكل لحومها، وبيان سهمها في الغنيمة، والمسابقة بينها وكيفية تحقق السبق، وإنزاء الحمير عليها، وطهارة بولها للمجاهد، وركوب المرأة عليها، وحكم ركوب الذميّ عليها، واستعارتها وإجارتها وبيعها والتصرف فيها إذا تعذر ركوبها، وحكم سؤرها وروثها وجلدها، وحكم دخولها في المسجد، وغير ذلك من الأحكام والمسائل ويمكن مراجعة الموسوعات الفقهية الكبرى للاطلاع عليها، مثل «كتاب الأم» للشافعي، و«المدونة» لسحنون، و«المحلى» لابن حزم، و«المغني» لابن قدامة، و«المجموع» للنووي، و«المبسوط» للسرخسي، و«الذخيرة» للقرافي، و«حاشية ابن عابدين» وغيرها.

أما كتب السيرة النبوية فتذكر خيل النبي صلى الله عليه و سلم وصفاتها وأحوالها، ونجد ذكرها في عامة كتب السيرة من سيرة ابن إسحاق إلى السيرة الشامية الكبرى « سبل الهدى والرشاد » وما بعدها، وقد خصص كلُّ مؤلفٍ فصلاً أو فصولاً للحديث عن خيل النبي وحُبّه لها، وبيان أسمائها وأحوالها.

نأتي الآن إلى كتب اللغة والأدب والشعر ، فنجد أن للخيل فيها فصولاً خاصة وأبحاثاً مهمة قد لا نجدها في الكتب المفردة ، ولذلك فهي تستحق الذكر. ومن كتب اللغة المهمة في هذا المجال :

- «الغريب المصنَّف لأبي عبيد (ت 224 هـ) 1/ 281 - 291.
- «المنتخب من غريب كلام العرب لكراع النمل (ت 310 هـ) 1/ 295 - 296، 306 - 328.
- «مبادئ اللغة» للإسكافي (ت 420 هـ) ص 113 - 142.
- «فقه اللغة» للثعالبي (ت 429 هـ) 1/ 253 - 262.
- «المخصص » لابن سيدة (ت 458 هـ) 6/ 135 - 206.
- «نظام الغريب» للربعي (ت 480 هـ) ص 117 - 130.
- «كفاية المتحفظ» لابن الأجدابي (من القرن الخامس) ص 112-100.
- «وتحرير الرواية في تقرير الكفاية» لابن الطيب الفاسي (ت 1170هـ) ص 281 - 308.

أغلب هذه الكتب اختصرت ما في المصادر الأولى من معلومات عن الخيل، وقامت بتهذيبها واختصارها وإضافة شيء قليل إليها. ومنهجها أنها تذكر اللفظ ثم تفسِّره بإجمال دون الاستشهاد بالشعر، وأكثر هذه الألفاظ تعتبر من الغريب. وأهمُّ هذه الكتب «المخصّص» لابن سيدة، الذي نجد فيه كل الموضوعات التي عالجها مَن قبله، مع كثير من الاستشهاد بالشعر، وذِكر الأخبار المهمة المتعلقة بالخيل، ويظهر بعد مقارنته مع الكتب السّابقة أنه لم

يجمع بعض الأبواب المتشابهة في الكتب المتنوعة في بابٍ واحد، بل نجد عنده موضوعاً واحداً في بابين أو أكثر مع اختلاف العناوين، وقد حذف بعض الأخبار والأشعار وأسماء الرواة، وغيَّر ترتيب عبارتها، وحشا بعض الأبواب التي استعارها من غيره بزيادات كثيرة تتألف من مشتقاتٍ من اللفظ الذي يعالجه أو مرادفات له، أو مسائل لغوية ونحوية وصرفية تتصل به، أو شواهد من الحديث ولأمثال، أو مخالفة لغوي آخر لتفسيره، أو زيادة عليه أو ما شابه ذلك. ويعتبر كتاب « المخصص » قمَّة ما وصل إليه التأليف في الخيل من الناحية اللغوية، وخلاصة المؤلفات السابقة عليه في هذا الباب، مع زيادات بيِّنة عليها.

أما كتب الأدب ففيها طرائف الأخبار والأشعار المتعلقة بالخيل، ففي «كتاب الحيوان» للجاحظ (ت 255 هـ) فصول متفرقة عنها، وفي «»عيون الأخبار» لابن قتيبة (ت 276 هـ) 1 / 153 - 160 باب في الخيل، وفي «العقد الفريد» لابن عبد ربه (ت 328 هـ) 1 / 152 - 178 أبحاث عن فضائل الخيل، وصفة جياد الخيل، وسوابق الخيل، والحلبة والرهان.

وفي «أدب الكتاب» للصولي (ت 335 هـ) ص 207 - 208 فصل عنها.

وفي «أمالي القالي» (ت 356 هـ) 1 / 41 - 42 (وصف الفرس وشرحه)، و1 / 187 - 190 (وصف الجواري الخمس لخيل آبائهن)، و2 / 237 - 255 (مقصورة صفوانٍ الأسدي وشرحها، وفيه : ما يستحبُّ طوله وقصره في الفرس، وما يستحب في الفرس تفصيلاً، وما في الفرس من أسماء الطير) و«صلة ذيل الأمالي» ص 184 - 185 (الخيل المنسوبة)، وص 191 - 194 (أبيات عبد الغفار الخزاعي في وصف الفرس وما في الفرس من أسماء الطير).

وفي «زهر الآداب» للحصري (ت 453 هـ) 1/ 304 - 319 (وصف الخيل) .

وفي «محاضرات الأدباء» للراغب الأصفهاني (من القرن الخامس) 4 / 635 - 652 (وصف الخيل وما يتعلق بها).

وفي «ربيع الأبرار» للزمخشري (ت 538 هـ) 4/ 391 وما بعدها.
و «التذكرة الحمدونية» لابن حمدون (ت 562 هـ) 5/ 241 - 253.

و«شرح مقامات الحريري» للشريشي (ت 619 هـ) 1/ 287 - 289.
و«عجائب المخلوقات» للقزويني (ت 682 هـ) ص 242 وما بعدها.
و«نهاية الأرب» للنويري (ت 733 هـ) 9/ 242 - 10 / 78.
و«حياة الحيوان» للدميري (ت 808 هـ) في مواضع متفرقة.
و«صبح الأعشى» للقلقشندي (ت 821 هـ) 2/ 13- 29.
و«المستطرف» للإبشيهي (ت 852 هـ) 2/ 475-477 وغيرها فصول مهمة تتعلق بأصناف الخيل وألوانها وشياتها ، وما يستحسن ويستقبح من صفاتها، ومعرفة الدوائر التي تكون فيها ، والبصر بأمور أسنانها وأعمارها.

ولو قرأ أحد ما في « صبح الأعشى » لاطلع على مجمل ما بحث عنه المؤلفون في هذه الكتب الأدبية.

وفي كتب الاختيارات الشعرية أجود ما نُظم في الخيل وشرح ما وقع فيه من غريب ، أو اشتمل على تشبيه نادر ووصف جميل .

وفيما يلي ذكر بعض هذه المصادر :

- «المعاني الكبير» لابن قتيبة (ت 276 هـ) 1/ 1 - 180 يحتوي على شرح أبيات المعاني في الخيل.
- «التشبيهات» لابن أبي عوان (ت 322 هـ) ص 38.
- «ديوان المعاني» لأبي هلال العسكري (ت 395 هـ) 2/ 106 - 118، فيه أجود ما قيل في صفات الخيل .
- «الأنوار ومحاسن الأشعار» للشمشاطي (القرن الرابع) 1/ 269 - 351، يشتمل على باب في الخيل وصفاتها وأنسابها وشياتها.
- مجموعة المعاني لمجهول 2 / 863-876 ما قيل في الخيل.
- «التشبيهات من أشعار أهل الأندلس» ص 190 - 191 باب في الخيل.
وغيرها من الاختيارات الشعرية التي لا تخلو عن وصف الخيل وما يتعلق بها من موضوعات.
ولو تتبعنا كتب الأمثال لوجدنا فيها أمثالاً عديدة تتعلق بالخيل، منها :
- الخيل أعرف بفرسانها (الدرة الفاخرة 2/ 454 ، مجمع الأمثال 1/ 238) .

- الخيل ميامين (مجمع الأمثال 1/ 238، جمهرة الأمثال 1/ 411، 414) .
- أحق الخيل بالركض المعارُ (مجمع الأمثال 1/ 203، المستقصى 1 / 69) .
- أسرع من مرّ الخيل (المستقصى 1/ 165) .
- أسرع من فريق الخيل (مجمع الأمثال 1/ 349، جمهرة الأمثال 1/ 217) .
- غضب الخيل على اللجم (مجمع الأمثال 2/ 56، المستقصى 2/ 177) .
- مرَّ الصعاليك بأرسان الخيل (جمهرة الأمثال 2 / 226، 275).
- يا خيلَ الله اركبي (مجمع الأمثال 2/ 182).

هذه جولة سريعة في الكتب والمصادر التي تحتوي على فصول وأبحاث عن الخيل، وقد رأينا أن أغلب كتب التراث تُعنَى بالحديث عنها بإجمال أو تفصيل ، ولا غنًى عنها لأي باحث يدرس الموضوعات المتعلقة بالخيل، وربُّما تفيده هذه الكتب مالا تفيده الرسائل المفردة في هذا الباب ، ولذا لا ينبغي إهمالها.

نأتي الآن إلى الكتب المفردة ، وسوف أقتصر هنا على المطبوع منها ، وقد قمتُ بعمل فهرس كامل لجميع ما وصل إلينا مخطوطاً مع بيان وجوده في مكتبات العالم، وأكتفي هنا بعرضٍ سريع لأهم الكتب المطبوعة.

لقد عُني اللغويون بالتصنيف في الخيل عناية فائقة ، وألفوا فيها كتباً كثيرة في القرنين الثالث والرابع الهجريين، كما نجد ذكرها في كتب التراجم والتاريخ . وقد ضاع معظم هذه الكتب لعدة عوامل، ولم يصل إلينا منها إلا القليل.
ومن أهم ما وصل إلينا أربعة كتب لمؤلفين في القرن الثالث تُعتبر مصادر أساسية في هذا الباب، وهم الأصمعي وأبو عبيدة وابن الكلبي وابن الأعرابي ، وفيما يلي نلقي نظرة سريعة على مناهجها :

«كتاب الخيل» للأصمعي (ت 215 هـ) :

تأتي أهميته أنه من أقدم الكتب التي وصلت إلينا في الخيل، وكان منهلاً للمؤلفين بعده وقد تناول فيه الأصمعي الحديث عن كل ما يتعلق بالخيل ، مثل حمل الخيل ونتاجها وأسنانها وخلقها ووصف أعضائها، وما يستحبُّ فيها وما يكره منها ، وصفة مشيها وعدوها ، وألوانها وشياتها ، والخيل المنسوبة وغيرها . وإذا قارنا هذا الكتاب بكتب أخرى نجد أنه أقل مادةً من كتاب أبي عبيدة، ولكنه يعالج معظم النواحي التي عالجها، والشواهد الشعرية فيه نحو ستين بيتاً، بينما كتاب أبي عبيدة يحتوي على مقطوعات وأبيات كثيرة، إلاّ أن كتاب

الأصمعي يفوقه في المادة اللغوية، فقد ذكر الألفاظ التي تطلق على كل حالة من الخيل، وكذا الأفعال والصفات منها.

«كتاب الخيل» لأبي عبيدة (ت 209 هـ) :

يعد كتاب أبي عبيدة من أهم الكتب التي بين أيدينا، لغزارة المادة التي جاءت فيه ، بل يأتي المؤلف بقصائد كاملة لشعراء جاهليين وإسلاميين قالوها في وصف الخيل . وتأتي أهمية كتابه من ناحيتين :

الأولى : أنه نصٌّ قديم نطمئن إليه ونثق به، حفظ لنا كثيراً من الأشعار التي قيلت في الخيل. وقد اعتمد عليه الذين قاموا بجمع أشعار الشعراء في وصف الخيل.

والأخرى : أن بعض هذه الأشعار انفرد بروايتها أبو عبيدة، ولا نجدها في دواوين الشعراء.

وقد سار أبو عبيدة في تأليفه على منهج الموضوعات، فهو يضع عنواناً للموضوع ، وتحته يأتي بكل ما يخدم الموضوع من معلومات وأوصاف وأشعار.

وقد تناول فيه عدة موضوعات مثل : صيانة العرب للخيل وإيثارهم لها وأشعارهم في ذلك، والأمر بارتباطها وما ورد في فضلها من الأحاديث والآثار، وما قالته عرب الجاهلية من الأشعار في اتخاذ الخيل، وأسماء خلق الفرس، وما يوصف من أمر الخيل وفحولها وإناثها من حين تستودَق إلى أن تُنتَج، وحال أولادها إلى أن تنتهي أسنانها، ودعاء الخيل، وعيوب خلقها، وعيوبها الحادثة، وما يستدل بها على جودة الفرس وعتقه، وصفة العتق، وما يخالف الذكر فيه الأنثى، وأسماء الخيل، وما تستحب العرب في الخيل وألوانها، وأسماء الدوائر التي تكون فيها، وقيام الخيل ومشيها ، وعيوبها في جريها ونشاطها وصهيلها. وقد يفسّر الكلمات وأحياناً كثيرة لا يفسرها.

«أنساب الخيل» لابن الكلبي (ت 204 هـ) :

ذكر في أوله فضل الخيل، والأحاديث والأخبار الواردة فيه، ثم ذكر أسماء الخيل المشهورة المعروفة المنسوبة في الجاهلية والإسلام، وما اشتهر منها باسم أو نسب من ذكورها وإناثها. وأورد بعض الشعر الذي نظم فيها.

«أسماء خيل العرب وفرسانها» لابن الأعرابي (ت 231 هـ) :

يختلف الموضوع الذي تناولها ابن الأعرابي عن موضوعات أقرانه وإن كانت كلها تتناول

موضوع الخيل، فقد عني ابن الكلبي كما ذكرنا بأنساب فحول الخيل في الجاهلية والإسلام، وعني أبو عبيدة والأصمعي في كتابيهما بالجانب اللغوي، فحرصا على ذكر الألفاظ التي تُطلق على كل حالة من حالات الخيل، وكذلك الأفعال والصفات.

أما كتاب ابن الأعرابي فزاد على ما في الكتب السابقة بزيادة الجانب الأدبي ، وكثرة الشعر الذي استشهد به ، والنص على أسماء خيل العرب منسوبة إلى قبائلها وذكر أخبارها.
ويُعدّ كتابه من المصادر القديمة في أسماء خيل العرب وفرسانها وما حكي عنها من أخبار ، وما خاضته من معارك وما قيل فيها من أشعار ، وقد رتب أسماء الخيل تحت أسماء القبائل والجماعات . وقد يورد أكثر من شاهد لأكثر من شاعر في الفرس الواحد .

أما كتاب أسماء خيل العرب وأنسابها وذكر فرسانها للأسود الغندجاني (ت بعد 430 هـ): فميزته أنه رتَّب أسماء خيل العرب على حروف المعجم. وهذا ما فعله الصاحبي التاجي (ت بعد 697 هـ) في كتابه « الحلبة في أسماء الخيل المشهورة في الجاهلية والإسلام ». وتكمن أهميتُه في انفراده بذكر أسماء أفراس أخلَّت كتب الخيل بذكرها، وقد بلغ عددها ثلاثة وثلاثين . ونسخته الفريدة توجد في مكتبة خدابخش خان بالهند، وهي ناقصة من أثناء حرف اللام إلى الأخير.

وقد كان للحروب المتصلة بين المشرق والمغرب، وخاصةً الحروب الصليبية والأندلسية أثرها في محاولة المؤلفين إذكاء روح الحماسة بين الشعوب بالتأليف في الخيل والسلاح وأدوات الحرب عامةً. وكان من هذه التآليف ما اتسم بصبغة لغوية إلى جانب الصبغة الأدبية الحماسية الغالبة . ومثال هذا كتاب « حلية الفرسان وشعار الشجعان » لعلي بن عبد الرحمن بن هذيل الأندلسي (من القرن التاسع)، الذي ألَّفه للسلطان أبي عبد الله محمد من بني الأحمر في أوائل القرن التاسع . ويعتبر هذا الكتاب موسوعة في باب الخيل والسلاح وأدوات الحرب بصفة عامة، فقد قسَّمه المؤلف إلى عشرين بابا، خصَّ الأربعة عشر الأولى منها بالخيل وما يتعلق بها، وجمع كل ما تفرق في المصادر السابقة في موضوع الخيل، ورتبه أحسن ترتيب بدءاً بخلق الخيل وتاريخها وفضائلها، والحث على حفظها وصونها، وأعضائها، وألوانها، وما يُحمد فيها وعيوبها، واختيارها واختبارها، وتعليم ركوبها والمسابقة عليها، وأسماء خيل رسول الله وفحول خيل العرب المنسوبة، وانتهاءً بذكر ألفاظ وتسميات تختص بالخيل، ونبذة من الشعر في إيثار العرب الخيل على غيرها وإكرامهم لها وافتخارهم بذلك .

هذا عرض سريع لأهم الكتب المفردة في الخيل ، وهناك كتب أخرى أُلِّفت في القرون المتأخرة كان اعتمادها على الكتب السابقة ، ولم تُضِف شيئاً جديداً ، فنصرف النظر عنها .

وبهذا العرض السريع نصل إلى أن كتب الخيل سارت في وجهات متعددة، منها اللغوي والأدبي والتاريخي والعملي. وعلى كثرة ما أَلَّف فيها المتأخرون نجد أنهم كانوا عالةً على الكتب الأولى في المادة والمنهج، فلم يحاول أحد منهم الابتكار أو التجديد، وإنما دفعهم إلى التأليف فيها جمع المادة اللازمة، وعرضها بصورة جديدة.

ولذا فعلى الباحث أن يراجع إلى جانب هذه الكتب المفردة في الخيل تلك الفصول والأبحاث القيمة التي توجد ضمن الكتب والمؤلفات في مختلف الفنون، والتي أشرنا إليها سابقاً، فهي غنية بموادّ مهمّة وأبواب خاصة قد لا توجد في الكتب المفردة.

قراءة في أرجوزة تميمة الأجياد في الصافنات النجباء الجياد لعبد القادر القادري

ذ. محمد سعيد حنشي(*)

توطئة :

الحمد لله الذي خلق الخيل وجعل الخير معقودا بنواصيها، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيدنا محمد نبي الأمة وهاديها، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد؛

فنشكر الجمعية المغربية لمعرض الفرس ومن يعينها في أمرها من مؤسسات وأفراد أن جعلوا للعلم حظا ونصيبا في أنشطتهم، واستضافونا على مأدبتهم، لنتناقش في جانب مهم من حضارتنا وثقافتنا، وقد استبدت بنا حيرة كبيرة في اختيار موضوع مناسب نبقى فيه أوفياء لمسارنا العلمي المرتبط بالبحث في التراث، مع احترامنا لمتطلبات المحاور المقترحة في هذه الندوة، فولينا وجهنا شطر فهارس المخطوطات؛ خصوصا المغربية منها؛ وقد وقفنا على مجموعة مهمة من مصنفات المغاربة في مجال الفروسية والخيل، معظمها ما يزال مخطوطا ويحتاج إلى تحقيق، لكن الوقت الذي خصص لتهيء هذه الندوة لم يكن كافيا لتقديم أحد هذه المصنفات كورقة ضمن أعمالها، فاكتفينا بقراءة موجزة لأحدها، ويتعلق الأمر بأرجوزة القادري المسماة «**بتميمة الأجياد في الصافنات النجباء الجياد**»، وسنركز فيها على محورين اثنين:

-الأول وسنتناول فيه حياة مؤلفها وآثاره.

-والثاني سنتحدث فيه عن الأرجوزة وأهميتها، وتفصيل مضامين مقدمتها، وثلاثة أبواب منها، الأول والثاني وتناول فيهما المؤلف صفات الخيل العتيقة، ذات الأعضاء المتناسقة، والصفات الحسنة، والباب الثالث وتحدث فيه عن ألوان الفرس وما قيل في مدحها.

مقدمة

تعتبر الخيل من أشرف الحيوانات، فقد أقسم الله بها في محكم الآيات، من فوق سبع سماوات، وجعلها من زينة الحياة، وأحب الخيرات، ومدحها النبي صلى الله عليه بأجل الصفات، وأحبها العرب في الجاهلية والإسلام فألفوا فيها المصنفات، ووصفوها بأروع الصفات، وحلّوها بأبدع العبارات، وأرق الأبيات، وما يزال حبها منوطا بقلوبهم وأكبادهم في الحاضر

(*)- ذ. محمد سعيد حنشي : باحث بالخزانة الحسنية الرباط

وفي ما هو آت، ولا غرو في ذلك، فالخيل حقيقة بالإنعام، والمحبة والإكرام، بفضل ذكائها، وكريم سجاياها، وعميم خيرها وفضلها. وقد كان العرب لا يهنئون إلا بإحدى ثلاث، «بغلام يولد، أو فرس تُنتَج، أو شاعر ينبغ»[1]، وكانت « تخصُّها وتكرمها وتؤثرها على الأهلين والأولاد، وتفخر بذلك في أشعارها، وتعدها لها»[2] من ذلك قول الشاعر:

مفداة مكرمة علينا تجاع لها العيال ولا تجاع

ومنها قول آخر في الحث على تربية الخيل، وحسن رعايتها، والاصطبار على ذلك:

أحبوا الخيل واصطبروا عليها فإن العز فيها والجمالا
إذا ما الخيل ضيعها رجال ربطناها فشاركت العيالا
نقاسمها المعيشة كل يوم ونكسوها البراقع والجِلالا

ولم يكن الغرب الإسلامي عموما، والمغرب الأقصى بشكل خاص بمنأى عن هذا التقليد العربي والإسلامي المتجدر، فأهله اهتموا بتربية الخيل منذ القديم، ولهم في فن الفروسية آداب وقواعد معلومة، توارثوها جيلا بعد جيل، ولهم في هذا الفن مصنفات عديدة، تعبر عن حبهم لها، وتعلقهم بها. وتعد أرجوزة العلامة عبد القادر القادري (ت. 1179هـ) المسماة «بتميمة الأجياد في الصافنات النجباء الجياد» من بين أنفس هذه المصنفات، وقد كتب لها من الذيوع والشيوع ما لم يكتب لغيرها من المصنفات في بابها، فقد شرحت أكثر من شرح، وكانت مرجعا رئيسا لكثير من من المصنفين الذين ألفوا بعد القادري في هذا الفن، وسنعرض في المحور الأول من هذا البحث، نبذة موجزة من حياة القادري، وفي المحور الثاني سنتناول بالدراسة قسما من هذه الأرجوزة .

ا.نبذة من حياة المؤلف :

تعد الأسرة القادرية أعرق الأسر، وأشرف البيوتات، التي اسوطنت حاضرة فاس، وقد اشتهر منها علماء وأولياء، وأدباء وشعراء، ومؤرخون وفقهاء، منهم العلامة عبد السلام بن الطيب القادري (ت.1110هـ)[3]، والعلامة محمد الطيب بن عبد السلام القادري (ت.1187هـ)[4]، وغيرهم. ويعد العلامة عبد القادر بن العربي القادري من بين أبرز نجباء هذه الأسرة الكريمة،

1- العمدة في محاسن الشعر وآدابه: 1/ 153.
2- أنساب الخيل لابن الكلبي: 6.
3- ترجمته في السر الظاهر: 138، الأعلام: 4/ 5.
4- ترجمته في السر الظاهر: 152، سلوة الأنفاس: 2/351، الأعلام: 6/ 178.

ولم نقف فيما بين أيدينا من مصادر على ترجمة وافية له، ولعل أهم ترجمة له هي صنعها مؤرخ هذه الأسرة الأديب الشاعر أبي الربيع سليمان الحوات في كتابه **السر الظاهر فيمن أحرز بفاس الشرف الباهر**، ونقل هذه الترجمة من جاء بعده كصاحب سلوة الأنفاس، وترجمه أيضا محمد بن عبد القادر بن عثمان الإدريسي الملقب بالخبزاوي ترجمة قصيرة في بداية شرح أرجوزة **تميمة الأجياد** اقتصر فيها على ذكر نسبه، وبعض خصائص شخصيته، وتاريخ وفاته.

1 - نسبه وولادته :

هو الفقيه الأديب أبو محمد عبد القادر بن الفقيه العلامة العربي بن الطيب بن محمد الحسني القادري، الموصولة سلسلة نسبه بالقطب الرباني سيدي عبد القادر الجيلاني، كانت ولادته كما ذكر صاحب السر الظاهر صبيحة يوم السبت 22 ربيع الأول سنة 1100هـ.

2 - شيوخه وألقابه :

لم يفصل مترجمو القادري في شيوخه، وتلامذته، وإجازاته، وذكر بعض مروياته، وإنما اقتصروا على ذكر شيخين اثنين منهم، بما في ذلك صاحب السر الظاهر، فقد ذكر أنه أخذ عن الولي الصالح أبي عبد الله محمد بن يوسف المسناوي الحمدوشي المتوفى سنة 1159هـ، ولم يحدد بالضبط متى وأين أخذ عنه، ولا ماذا أخذ عنه، وأخذ عن الشيخ الإمام، الولي الهمام أبي العباس أحمد بن عبد الله بن معن الأندلسي المتوفى (ت.1120هـ).

ولا نعلم بالضبط السبب الذي جعل مؤرخا خريتا مثل الحوات يختصر ترجمة عبد القادر القادري هذا الاختصار المخل، ويقتصر على ذكر شيخين من شيوخه، وإلا فإن شيوخه كثر، وكلامه الذي ذكر بعدُ يؤكد ذلك فقد قال: « ولقي جماعة من الصالحين وتبرك بهم حتى تهذب وتمكن[1]» ولعل أبرز من كان ينبغي ذكره منهم والده العلامة العربي بن الطيب القادري.

وصف القادري بمجموعة من الألقاب التي تدل على غزير علمه، وجليل فضله، فقد حَلَّاه صاحب السر الظاهر بألقاب عدة، فقد قال عنه في بداية ترجمته: الأديب الفقيه الصالح الوجيه.

ثم ذكر بعد ذلك أنه كان جليلا، جميلا، صوفيا، ناسكا، صادقا، نبيلا.

ومن الشمائل التي امتدحه بها أيضا أنه كان جيد الفهم قوي الإدرك، سيال القريحة في النظم على البديهة[2].
وقال عنه محمد بن عبد القادر بن عثمان الإدريسي الملقب بالخبزاوي في مستهل شرحه

1- السر الظاهر: 50.
2- السر الظاهر: 150.

لأرجوزة القادري: « كان عالما متفننا تقيا ذكيا نقيا.» [1]

وقال عنه أحد أبناء عمومته وهو محمد الطيب بن عبد السلام القادري الحسني « كان رحمه الله ... بصنعة النظم خبيرا، وبطرق تحبير الشعر بصيرا.» [2]

وشخص بمثل هذه الأوصاف والألقاب لا شك أنه كان علما شاخما من أعلام عصره، وطودا راسخا من أطواد مصره.

ت- مؤلفاته:

ذكر في ترجمته أن له ديوان شعر في نحو المجلد تولى جمعه وترتيبه أحد أبناء عمومته وهو محمد الطيب بن عبد السلام القادري الحسني (ت.1187هـ) [3]، وقد وقفنا على نسخة خطية منه بالخزانة الملكية بالرباط، وهي محفوظة تحت رقم 5804، قال جامعها في مقدمتها: «هذا تقييد مفيد، وعقد دُرِيٌّ فريد، أتيت به على أحسن ترتيب، وجمعت فيه شعر ولد عم أبينا القريب... وذلك أنه لما أَحس قرب أجله رحمه الله، جمع بطائق من مقولاته في خزانة، وناولنيها بقصد أن أخرجها من مبيضتها، فجمعت منها هذا المجلد مما تخلص لي على سبيل التسهيل والتقريب، وتركت ما فيه صعوبة وتشعيب...» [4] « وربما دعت الضرورة إلى أن أصلحت منها شيئا، كالحرف الواحد، والكلمة الواحدة، لعروض نسيان، أو غفلة، أو سبق قلم، وإلا فقد كان رحمه الله... بصنعة النظم خبيرا، وبطرق تحبير الشعر بصيرا... وأكثره في التوسل والمديح النبوي» [5] ويتألف هذا الديوان من 71 ورقة، فرغ من جمعه زوال 15 ربيع الأول عام 1187هـ.

- الأثر الثاني للقادري هو أرجوزته المسماة **بتميمة الأجياد في الصافنات النجباء الجياد،** ومنهم من سماها يتيمة الأجياد في الصافنات النجباء الجياد [6] وبهذا العنوان طبعت ولعله تصحيف، وتتألف من ثلاثمائة، واحد وثلاثين بيتا، وتضم مقدمة، وخمسة أبواب، وخاتمة، وكان الفراغ من نظمها سنة 1150هـ، وسنفصل فيها القول في القسم الثاني من هذا البحث.

1- نزهة خواطر العباد في يتيمة الأجياد في الصافنات المعدة للجهاد مخ. خ .ح : 19.
2- ديوان شعره 71.
3- السر الظاهر: 150.
4- ديوان شعره مخ 1-2.
5- ديوان شعره 71.
6- نشرت ضمن ضمن مطبوعات وزارة الثقافة المغربية سنة 2003 ولم نتمكن من الوقوف عليها فاعتمدنا على نسخها المخطوطة.

ج - وفاته:

كانت وفاة العلامة عبد القادر القادري رحمه الله في 18 ذي الحجة الحرام سنة 1179هـ، ودفن قرب قبر والده خارج باب الفتوح بمدينة فاس.

2 - قراءة في منظومة تميمة الأجياد :

تعتبر أرجوزة **تميمة الأجياد في الصافنات النجباء الجياد** من بين أهم مؤلفات المغاربة في وصف الفرس وأعضائه، وألوانه وصفاته، وذكر ما يتفائل به منها وما يتشاءم منه، وذكر بعض آداب الفروسية، وهي أرجوزة طويلة مكونة كما أسلفنا من ثلاثمائة وواحد وثلاثين بيتا، وتضم مقدمة، وخمسة أبواب، وخاتمة، وقد بحثنا عنها في فهارس المخطوطات فوجدنا منها أربعة عشر نسخة خطية، بعضها محفوظ في خزانات مغربية، والبعض الآخر في خزانات دولية، منها ست نسخ محفوظة بالخزانة الملكية بالرباط، وثلاثة في الخزانة الملكية بمراكش، وخمس نسخ محفوظة بالخزانة الوطنية بالرباط، وواحدة بخزانة مدينة تطوان، واثنتان في مكتبة الإسكندرية، وقد طبعت هذه الأرجوزة سنة 2003 ضمن منشورات وزارة الثقافة المغربية بتحقيق الأستاذة عتيقة الوافي.

وشرحت الأرجوزة أكثر من مرة، فقد شرحها محمد بن عبد القادرالإدريسي الخبزاوي شرحا طويلا مفيدا سماه: **نزهة خواطر العباد في شرح يتيمة الأجياد** منه نسخة خطية بالخزانة الملكية بالرباط بخطه، فرغ من تبييضها ظهر يوم الخميس 22 جمادى الثانية عام 1267هـ.

وشرحها أيضا الجزيري كما ذُكر في **كتاب فيض النَّيْل في آداب الفروسية والمعرفة بأوصاف الخيل**[1]، للعربي بن عبد الله التهامي الوزاني (ت.1339هـ) وقد نقل هذا الأخير من أرجوزة القادري كثيرا من الفوائد، واستشهد بأبياتها في مواضع كثيرة من كتابه.

وهي من حيث بنائها الفني لا تختلف عن المنظومات العلمية الأخرى، حيث تبتدئ عادة بحمد الله وشكر آلائه ونعمه، والصلاة والسلام على نبيه وآله وصحبه من بعده، والتقديم لموضوع الأرجوزة، وذكر عنوانها، إلا أن القادري هنا آثر تأخير ذكر العنوان إلى نهاية أرجوزته، وهو أيضا تقليد معروف ورد في بعض المنظومات، ثم ذكر عنوان كل باب على حدة منظوما، وعناوين هذه الأبواب هي:

1- فيض النيل: 255.

1. ذكر خصال الفرس المـــمـــــدوح — من غير أن يكـون بالجمـوح
2. ذكر صفـات الفـــرس العتيـــق — في غـاية الإتقـان والتحـقيق
3. ذكر جميع أفـــــضـــل الألـوان — مبينـا بـأوضـــح البـرهان
4. القـول في الغـرة والتحجيـــــل — ومصدق الأحكام في المشكول
5. ذكـــر التفـــاؤل من الدوائـــر — ومـا بهـا من مظهر السرائر

أما الخاتمة فأعاد فيها الافتخار بأرجوزته، وذكر عُنوَانْيها :
- الأول وهو المشهور والمذكور في كل الفهارس والمصادر وهو تميمة الأجياد في الصافنات النجباء الجياد.

- والثاني وقد ورد في نسخ دون غيرها وهو الجواهر المنظمة في وصف خيل الأمرا المسومة. ثم ذكر تاريخ الفراغ من تأليفها بطريقة حساب الجمل، وختمها بالصلاة على النبي المختار وآله وصحبه الأبرار، يقول القادري:

تقول من أنشـــأني من غيـــر غـــش — عند انتهاء النظم تاريخي نقش [1]
وصـل يـــا رب عـلـى المختار وآلـه — وصـحـبـــه الابـــــــرار
مـا دامت الخـيـــــل غـــدوا ورواح — تـغدو لـربـها بـدعوة النجـاح

أ ـ مقدمة أرجوزة تميمة الأجياد:

افتتح عبد القادر القادري أرجوزته هذه بآكد شيء يبحث عنه الباحث والمفهرس والمحقق على حد سواء، وهو توثيق نسبة الكتاب لصاحبه، فقد ذكر اسمه كاملا في مطلع أرجوزته حين قال:

يقول بـعـد الـحـمـــد عبـــد القـادر — وهو الشريف الحسني القادري
أبدأ باسم الله ذي العرش العظيـــم — سبحانه جـل جـلالـه القديـم

وهذا التقليد ديدن كثير من المصنفين في بداية أراجيزهم، والأمثلة في هذا الباب كثيرة سنقتصر على ذكر نموذجين اثنين منها، وهما لمؤلف واحد، وهو محمد بن عبد السلام بن محمد الفاسي (ت. 1214هـ)، يقول في مطلع أرجوزته في ذكر شيوخه ومروياته:

1- النون عند المغاربة تساوي 50، والقاف تساوي 100، والشين تساوي 1000، وبإضافة الأرقام إلى بعضها البعض نحصل على تاريخ الفراغ من تأليف هذه الأرجوزة وهو: 1150هـ

يقول راجي عفو خـــالـــق الأنـــام محمد الفاسي بن عابد السلام

ومنها أيضا قوله في مطلع أرجوزته في القراءات:

قال سليـــل عابـــد الســـلام محمد الفاسي ذو الإجرام

ومحصل الكلام أن حرص الرجل على ذكر اسمه كاملا في مطلع أرجوزته عمل محمود يوفر على الباحث الجهد والوقت والعناء في توثيق نسبة الكتاب، وليت كل المصنفين التزموا بهذا التقليد.

بعد ذلك حمد الله تعالى، وصلى على نبيه الكريم، وعلى آله وأصحابه الطاهرين، وهو تقليد راسخ من تقاليد آداب التأليف عند العرب، يقول القادري:

أبدأ باسم الله ذِي العرش العظيـــمْ سبحانه جل جلاله القديمْ
منشئ الخلائق كبير الشـــانِ ليس له في ملكه من ثاني
مُكونِ الأكوانَ بارئَ النَّسَـــمْ منفَضَّلَ الْعُرْبَ على جنس العجم
وذَصَّهم بالخيل والأنْعـــام وصحة الإيمان والإســـلام
فكان منهم الرســـول المصطفى خير البرية وجد الشرفا
صلى عليه ذو الجلال وعلـــى أصحابه وآله ذوي الْعُلا
عدد ما في علمه الكـــريم ما دام شأن ملكه العظيم

ثم لخص بعد ذلك البواعث على نظم هذه الأرجوزة في قوله:

وبعد حمد خالقـــي وشكـــره إذ ليس لي تمسك بغيره
أقولُ قولَ الحـــاذق النحريـــر كما يرى بأحسن التعبير
لما رأيت الخيـــلَ كنَـــزَ الأمـــرا وكون جيش النصر منها اعتمرا
نظمت دُرًّا لم تُقَلّدْهُ النحـــور وعنه لم تَفتر سائرُ الثغور
فمن يغوص البحر يأتـــي بالـــدرر ومن يطيل الفكر يحسن النظر
لا عتب إن صرت مؤخرا فلي فضـــل تـــقـــدم الفـــريـــق الأول

واستغل القادري هذا التقديم أيضا للافتخار بنفسه باعتباره من الأدباء القلائل الذين خاضوا هذه التجربة العلمية الصعبة على الأقل بين أهله وقومه، يقول في هذا المضمار:

فكم أطلت البحث في فن الأدب ... عسي أرى للنظم عونا وسبب
فلم أقف على نظام قد سبق ... في الخيل ممن بالقريض قد نطق
وأن كل من مضى من قومي ... قد حاد عن سبيلها في النظم
وهي لعمري العز وهي الجاه ... وهي لكل طالب مناه
كم ناظم هَمَّ بها فيما مضى ... وضاق من قبل به رحب الفضا
إذ لم يكُن له بها من علم ... لا في الكريهةِ ولا في السلم
لقد مضى قوم وجاء قومُ ... والكل خيلَ لديه الوهمُ

والمؤلِّف الحقيق بالشكر والثناء كما قال أحد العلماء: «إما أن يخترع معنى، أو يبتدع وصفا ومتنا...وما سوى هذين الوجهين فهو تسويد الورق والتحلي بحلية السرق.»[1]

بعد هذه المقدمة الطويلة نسبيا، دلف الناظم إلى الموضوع الرئيس في هذه الأرجوزة، فذكر مكانة الخيل المميزة في القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، فقد أقسم الله تعالى بها في سورة العاديات، وجعلها من زينة الحياة الدنيا في سورة آل عمران، ودليلا من دلائل الخير في سورة ص، وعدها وسيلة من وسائل إرهاب العدو وتخويفه في سورة الأنفال في قوله تعالى: ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ﴾.[2]

أما الرسول صلى الله عليه وسلم فقال إن الخير معقودا بنواصيها إلى يوم القيامة، وذكر أن المنفق عليها كباسط كفيه بالصدقة لا يقبضها، وحض إكرامها والمسح على نواصيها، وغير ذلك من الآثار النوية الشريفة، يقول القادري:

أليس في كتابه المنزَّل ... على النبي العربيِّ المرسل
أقسم جل وعلا بالعادياتِ ... وذكر الجيادِ بعد الصافناتِ[3]
وقال أيضا يا له من قول ... من قوة ومن رباط الخيل[4]

1- عارضة الأحوذي 1/ 4.
2- الأنفال: 60.
3- في البيت إشارة إلى قوله تعالى في الآيتين الكريمتين: (والعاديات ضبحا) العاديات: 1 وقوله عز وجل: (إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد) سورة ص: 31.
. وصفنت الدابة تصفن تصفن صفونا: قامت على ثلاث وثنت سنبك يدها الرابع، وفي الصحاح: الصافن من الخيل القائم على ثلاث قوائم وقد أقام الرابعة على طرف الحافر، وقيل الصافن: القائم على الإطلاق. ل.صفن.
4- يحيل إلى قوله تعالى: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) الأنفال: 60.

وذكر الخيل مع المسومه ... موصولة ألفاظها محكمه[1]
وغير ذلك أتى في الذكر ... كقوله أحببت حب الخير[2]
فصح عند العلما باتفاق ... تفسير لفظ الخير بالخيل بالعتاق
وفي الصحيح جاءنا عن جابر ... وهو ابن عبد الله ذي المآثر[3]
قال وقد جلت لخاصيتها ... الخير معقود بناصيتها[4]
ولابن سعد عن عريب ذكرا ... في الطبقات مسندا ومخبرا
من كان يصرف عليها النفقه ... كباسط الكف ببذل الصدقه[5]
وعنه جاء مثل ما تقدما ... نصا أتت به ثقات العلما
أكرم من أكرمها رب الورى ... ومن أهانها مهانا قد يرى[6]

ثم تطرق إلى موضوع آخر مهم وهو خلق الخيل، وذكر أول من امتلكها، واستشهد في هذا الباب برأي كمال الدين الدميري الذي ذكر في كتابه الحيوان نقلا عن الحاكم النيسابوري في تاريخ نيسابور حديث علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه عن النبي صلى الله عليه وسلم: « لما أراد الله سبحانه وتعالى أن يخلق الخيل قال لريح الجنوب إني خالق منك خلقا أجعله عزًّا لأوليائي، ومذلة لأعدائي، وجمالا لأهل طاعتي...» الحديث[7].

وأورد فائدة أخرى نقلا دائما عن الدميري الذي قال إن « أول من ركب الخيل إسماعيل عليه السلام، وكانت قبل ذلك وحشية كسائر الوحوش»[8] وفي ذلك يقول القادري :

وفي حياة الحيوان عن علي ... بسند مصحح لم يجهل
أمر آدمَ الإهنا الكريمْ ... من خلقه يختار خلقا في القديمْ

1- فيه أيضا إشارة إلى قوله تعالى: (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة) آ ل عمران:14.
2- فيه إشارة إلى قوله تعالى في سورة ص الآية:32 (فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي).
3- أعني ابن عبد الله . في ب ود و ر، وفي ج: عن ابن عبد الله
. هو جابر بن عبد الله بن عمر بن حرام الخزرجي الأنصاري، صحابي جليل من المكثرين في الرواية عن النبي صلى الله عليه وسلم، توفي سنة 78 هـ ترجمته في: الاستيعاب: 109 ، الإصابة: 45 ، أسد الغابة: 362/1.
4- وهو الحديث النبوي الشريف الذي رواه جابر بن عبد الله رضي الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ وَالنَّيْلُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَأَهْلُهَا مُعَانُونَ عَلَيْهَا فَامْسَحُوا بِنَوَاصِيهَا وَادْعُوا لَهَا بِالْبَرَكَةِ...) الحديث في مسند الإمام أحمد: 12262
5- وهو الحديث النبوي الشريف الذي رواه جابر بن عبد الله رضي الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ وَالنَّيْلُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَأَهْلُهَا مُعَانُونَ عَلَيْهَا فَامْسَحُوا بِنَوَاصِيهَا وَادْعُوا لَهَا بِالْبَرَكَةِ...) الحديث في مسند الإمام أحمد: 12262
6- فيه إشارة إلى الحديث النبوي الشريف الذي رواه ابن سعد في الطبقات: 7/434، وأخرجه السيوطي في الجامع الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (المنفق على الخيل كباسط يديه بالصدقة لا يقبضها ... الحديث)
7- كتاب الحيوان للدميري: 1/ 281.
8- كتاب الحيوان للدميري: 282/1.

فاختار من جميع ذلك الجـــوادْ فـكـان عـــزّا لـبـنـيـه ورشـــادْ
وقال أيضا صاحـــب الروايـــه بمسند تـحـسـن مـنـه الـغـايـه
خلفها اللّه من الريح الـجـنـوب عونا لنصر المومنين في الحروب
ولقلوب الـمـشـركـيـن رُعـــبُ لـنـا بـذلـك عـلـيـهـم غُـلْـبُ
وصح عنه أصلها قـد ينتســب لـنـجـل إبـراهـيـم أول الـعـرب
قـال اركبـوا الخيل وقـال إنهـا ميـراث إسمـاعيل راعي شأنها
لأنـــه أول من مـلـــكـــهـا ولـبـنـيـه فـي الـــورى تركها
كـانت مـن الوحش وكان أمـــرا لـه بـأن يـملكها رب الـورى
فـأمكنتهُ مـن نـواصيها الجميعْ والكـلُّ قـد أتـاه منها مستطيع

ب ـ آداب الفروسية والصفات الممدوحة في الفرس وذكر ألوانه :

تناول القادري في الباب الأول والثاني من هذه الأرجوزة بالتحليل موضوعين رئيسين اثنين:
- الأول ذكر فيه باختصار بعض قواعد الفروسية.
- والثاني عدَّدَ فيه صفات الفرس الممدوح الخَلقية والخُلقية.

أما الموضوع الأول والذي ألف فيه المغاربة المصنفات الطوال، فقد اختصره القادري اختصارا شديدا في أرجوزته، وذكره عرضا في الباب الأول حيث اقتصر على ذكر بعض التقاليد والقواعد المرعية في آداب الفروسية، وآكدها حسب رأيه شخصية الفارس القوية، فالخيل من الحيوانات الشديدة الذكاء، فهي تعرف بإحساسها من يركبها، فتسلس وتسلم زمامها للفرسان الشجعان، وتتمنع وتتعزز وتجمح على غيرهم ممن ليس لهم علم وخبرة وباع في هذا الميدان، كما أشار المصنف للدور الكبير للعنان فبفضله الخيل تكبح، وبسبب سوء استخدامه تجمح، فينبغي تسويته، وحسن استعماله ما بين شدة ولين، يقول في ذلك:

ذكـر خـصـال الـفـرس الـمـمدوح مـن غـيـر أن يـكـون بـالـجـمـوح
رائـضـه الـلـجـام كـــل حـيـــن مـــا بـــيـــن شـــدة وبـــيـــن لـيـن
وحالـة الركـوب قـــد تخـالـــفْ مـن بـركـوب الـخـيـل غـيـر عـارِفْ
يقـول في الأمثـال مـن يضربهـا الخيل قد تعرف من يركبَها

من المعلوم أن الفرس الحسن عند العرب ينبغي أن تتوفر فيه مجموعة من الصفات الخُلقية والخَلقية، لكي يمدح ويشار إليه بالبنان، وقد فصلها القادري في أرجوزته تفصيلا دقيقا، ويمكن تلخيصها في النقاط التالية:

ـ الصفات الخُلقية:

1. أن يكون منقاذا لصاحبه غير جموح.
2. أن يكون شديد النشاط عند الركوب والحركة.
3. أن يكون حاد النظر قوي السمع والبصر.
4. أن يكون منتظما في أكله وشربه وراحته ورياضته.
5. أن يكون سريع الحركة والعدو مع الانتظام في حركة قوائمه.
6. أن يكون متأدبا متبخترا في رقصه.
7. أن يكون قوي النفس شديد الذكاء.
8. لا يشرب من الماء حتى يكدره بحوافره لأنه ينفر من الماء الصافي.
9. لا يثني ركبته عند الشرب.
10. لا يعلف من معلف غيره ولا يأكل فضلة غيره.
11. أن يميل في مربطه يمينا وشمالا كأنه يطلب شيئا.
12. أن يكون محبا للصهيل والهجوع في الرياض المورفة.
13. أن يعرف من يركبه.

ـ الأعضاء المثالية للفرس العتيق:

وذكر منها القادري أكثر من أربعين صفة، وأغلبها منقول من كتب المتقدمين خصوصا كتاب الخيل لابن جزي وهي:

1. أن يكون مجتمع الخلق متناسب الأعضاء.
2. أن يكون عظيم الهامة.
3. أن يكون عظيم وسط الصدر.
4. أن يكون متسع المناكب والجبهة والعراقب.
5. أن يكون ممتلئ أصل العنق قصير الظهر.
6. أن يكون صغير الرأس مرفوعه.
7. أن يكون طويل العنق شديده ليستعين به في الجري.
8. أن يكون رقيق الأذنين قائمها طويلهما.
9. أن يكون ناتئ عظم الخدين لينهما.
10. أن يكون ضيق ما فوق دون الناصية وهو موضع العذار.
11. أن يكون أبيض الفم أحمر اللهات أكحل العينين وأهذبهما.
12. أن يكون متسع الحنك والمنخرين.
13. ان يكون مدور الشفتين رقيقهما وتكون شفته العليا أطول من السفلى بقليل.
14. أن يكون مرصوص الأسنان دقيقهما.

15. أن يكون طويل رأس الأنف واللسان.
16. أن يكون صغير الفم بحيث يستطيع أن يشرب من طست صغير (غراف).
17. أن يكون قصير متن الظهر.
18. أن يكون سامي الكتفين دقيق الوركين.
19. أن يكون منطوي الكشح.
20. أن يكون رحيب الجانبين والجوف.
21. أن يكون عريض الفخذين ومستديرهما.
22. أن يكون غليظ عظم الساقين.
23. أن يكون لطيف ما فوق الرسغ إلى الركبة.
24. أن يكون يابس العصب.
25. أن يكون مدور الكعبين والوظيف.
26. أن يكون حاد العرقوبين.
27. أن يكون تام الذيل قويه.
28. أن يكون أسود الإحليل.
29. أن يكون أسود الحوافر صلبهما.
30. أن يكون ملتصق السنبك بالأرض .
31. أن يكون ما بين أليتيه متسع.
32. أن يكون لين شعر الشكير(عرف الفرس) وما حول الناصية.
33. أن يكون دقيق شعر الجسم.
34. أن يكون معتدل شعر الناصية.
35. أن يكون سائل الأضلاع.
36. أن يكون مغيب البطن.
37. أن يكون مدور الكفل مستويه.
38. أن يكون طول ذراعيه كطول فخذيه.
39. أن يكون قصر ساقيه كقصر ساعديه.
40. أن يكون مدور الأرساغ والكعبين.
41. أن يكون مقوم اليدين والرجلين.
42 أن يكون قصير شعر القوائم.
43. أن يكون حافره مدورا سالما من التشوه.

أغلب الصفات ذكرها العلماء في مصنفاتهم، وجعلوها مقياسا للتفضيل بين الخيل، وإذا اجتمعت في أحدها كان المقدم على غيره في كل شيء.

ـ ذكر ألوان الفرس:

خلق الله سبحانه وتعالى الألوان نزهة للأبصار، ومسرحا للأفكار، ومجالا للإعتبار، فإذا اجتمعت ... تضاعف حسنها، وازداد بهاؤها، وقوي الإعجاب بها.»[1] وموضوع لون الخيل موضوع طويل متشعب اختلفت فيه آراء العلماء، وقد تناوله القادري بتفصيل في الباب الثالث من أرجوزته، وأتى فيه برأيين اثنين الأول للغزالي، والثاني لابن هذيل.

فالغزالي في كتابه **جواهر الأنوار ومعدن الحكم والأسرار** قال إن ألوان الفرس ستة وهي:

1. الأحمر وهو أكرمها وأفضلها وأوفرها وأشرفها.
2. الكميت وهو أصبرها.
3. الأشقر وهو أسرعها.
4. الأبلق المبيض القوائم وهو أرفعها.
5. الأخضر المحجل وهو أيمنها.
6. الأصفر غير المشوب باحمرار وهو أسعدها وأنفسها.

أما ابن هذيل فذكر من ألوان الفرس عشرة ألوان وهي:

1. الخيل الشقر: وهي التي بها حمرة يعلو صفاؤها اصفرار، وهي التي دعا لها رسول الله صلى الله عليه وسلم باليمن والبركة.
2. الخيل الدهم: وهي التي بها سواد شديد الذي يذهب إلى البياض، من يغزو عليها يغنم ومن جميع النائبات يسلم.
3. خيل بها كتمة: وهي التي بها حمرة يدخلها بعض السواد، وعلى ظهرها تلتمس الحوائج.
4. الخيل الخضر: وهي التي بها غبرة مشوبة بدهمة، يقرب منها الأزرق الحديدي.
5. خيل صدأة: وهي التي بها صفرة تميل للسواد، أو دهمة تعلو عليها شقرة، أو سواد شيب بحمرة.
6. خيل وردية: تكون ما بين كتمة وشقرة، وتحسن فيها النظرة.
7. الخيل الصفر البهية: وهي كلون الشمس في العشية، وهي أحسن الألوان وأنذرها.
8. الخيل السمر (الصنابية): وهي التي ما كان فيها بين بياض واصفرار.
9. الخيل الشهب: وهي التي بها مزيج من اللونين الأبيض والأسود بدرجات متناسبة.
10. الخيل البلق: هي التي يكون بياضها كسوادها، أو غير ذلك من الألوان يكون البياض ثانيهما.

وأضاف القادري إلى هذه الألوان أربعة ألوان أخرى وهي:

1. اللون الأزرق: وهو مركب من بياض وسواد.

1- كتاب الخيل لابن جزي: 51.

2. واللون الزبيبي وهو مركب من دهمة وحمرة.
3. واللون البنفسجي الفائق وهو مركب من شقرة وسواد غاسق.
4. اللون الرابع وهو لون خيل العجم وهي نرنجيات مذهبة، من صفرة وحمرة مركبة.

وقد أهمل القادري آراء علماء آخرين منهم ابن جزي الذي ذكر ألوانا أخرى للخيل لم يستقصها القادري.

أما الباب الرابع والخامس من أرجوزة تميمة الأجياد فتناول فيهما المؤلف بتفصيل الأقوال التي قيلت في الغرة والتحجيل، والفرس المشكول، وذكر ما يتفاءل به وما يتشاءم منه من من شيات الخيل ودوائرها، وختم هذه الأرجوزة كما ذكر آنفا بذكر عنوانيها، وتاريخ نظمها، والافتخار بها، والصلاة على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

ج - المصادر التي اعتمد عليها القادري في أرجوزته:

ذكر القادري في كل باب من أبواب أرجوزته المصادر التي اعتمد عليها في جمع معلوماته ويمكن ترتيبها كالتالي:

1. القرآن الكريم: حيث ذكر مجموعة من الآيات في وردت في الثناء على الخيل.
2. الحديث النبوي الشريف: تتبع فيه القادري الأحاديث التي وردت في فضل تربية الخيل والأنواع التي أثنى عليها الرسول صلى الله عليه وسلم، وذكر ما استكره منها.
3. كتاب «جواهر الأنوار ومعدن الحكم والأسرار» المنسوب للإمام الغزالي وأخذ منه بعض الصفات المتعلقة بالفرس.
4. «فقه اللغة» للثعالبي ونقل منه مجموعة من أوصاف الفرس.
5. «تهذيب اللغة» للأزهري ونقل أيضا بعض صفات وألوان الفرس الممدوح.
6. «حلية الفرسان وشعار الشجعان» لابن هذيل ونقل منه كثيرا من الأشياء المتعلقة بالخيل في أبواب هذه الأرجوزة.
7. «الأنيس المطرب» لمحمد بن الطيب العلمي ونقل منه ما يتعلق بدوائر الفرس.
8. «كتاب الحيوان» للدميري ونقل ما تعلق بخلق الفرس، وأول من ركبه.

والبعض فهما بالقياس والنظـر	لقطته منتثرا مثـل الـدرر
غصت عليه في بحر الحكمـا	فصار عقدا لم يزل منظما
إذ كان لي في شأن ذاك معرفـه	من غير ما مسألة مختلفه

وبعد فهذه الدراسة الموجزة لهذه الأرجوزة فتحت أعيننا على جانب مهم طالما أغفلناه في بحوثنا، وقد تمكنا بفضل الله تعالى وحسن عونه من الوقوف على مجموعة مهمة من الكتب المخطوطة المؤلفة في هذا الفن، معظمها لمؤلفين مغاربة، وهي بحاجة ماسة إلى النشر لتعم بها الفائدة.

فهرس المصادر والمراجع:

1. القرآن الكريم رواية الإمام ورش.
2. الأعلام لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ط 10، 1992.
3. أنساب الخيل في الجاهلية والإسلام وأخبارها لابن الكلبي تحقيق أحمد زكي نسخة مصورة عن دار الكتب، الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة 1384 هـ /1965م.
4. تميمة الأجياد في الصافنات النجباء الجياد النسخ الست المحفوظة بالخزانة الملكية بالرباط.
5. ديوان عبد القادر بن العربي القادري كتاب مخطوط محفوظ بالخزانة الملكية بالرباط رقم 5804.
6. السر الظاهر فيمن أحرز بفاس النسب الباهر لأبي الربيع سليمان الحوات الطبعة الحجرية بفاس.
7. سلوة الأنفاس ومحادثة الأكياس فيمن أقبر من الصلحاء بمدينة فاس لمحمد بن جعفر الكتاني الطبعة الحجرية بفاس.
8. عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي للحافظ ابن عربي المالكي طبعة دار الفكر
9. العمدة في محاسن الشعر وآدابه تأليف أبي علي الحسن بن رشيق القيرواني تح. محمد قرقزان مطبعة الكاتب العربي دمشق ط .2، 1414هـ /1994م
10. فيض النيل في آداب الفروسية والمعرفة بأوصاف الخيل للعربي بن عبد الله الوزاني، تقديم وتحقيق حميد لحمر وحسن هرنان، منشورات وزارة الثقافة المغربية، ط1، 2009.
11. كتاب الحيوان لكمال الدين محمد بن موسى الدميري.
12. كتاب الخيل (مطلع اليمن والإقبال في انتقاء كتاب الاحتفال) تأليف عبد الله بن محمد بن جزي الكلبي الغرناطي، حققه وقدم له محمد العربي الخطابي، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان، ط 1، 1406هـ / 1986م.
13. نزهة خواطر العباد في يتيمة الأجياد في الصافنات المعدة للجهاد لمحمد بن عبد القادر الإدريسي الخبزاوي، نسخة خطية محفوظة بالخزانة الملكية بالرباط تحت رقم: 12494.

الشيم العالية للفرس والفارس عند العرب
تأملات في بعض مظاهر العشق و الأخلاق

ذ.مولاي سلامة العلوي(*)

الحمد لله وحده، و الصلاة والسلام الأتمان الأكملان على سيدنا محمد و على آله و صحبه أجمعين.

فقد سخر الله تعالى للإنسان الكون بحكمته منذ أنزل آدم إلى الأرض، وهيأ الرزق و ضمنه له و لذريته، وخلق له ما يعينه من وسائل، ومن ضمن ما خلق وسخر : الخيل، وكانت وحوشا لا تركب، فذللها للإنسان، وجعلها لخدمته، فأول من ركبها واتخذها إسماعيل ابن إبراهيم عليهما السلام و لذلك سميت عرابا.

و بعـــد،

أصحاب السعادة و الفضيلة حضرات السيدات والسادة، يشرفني أن أشارك في أعمال هذه الدورة الثانية المنظمة من طرف الهيئة العلمية و الثقافية المعتمدة من قبل جمعية معرض الفرس بمداخلة متواضعة في هذا اللقاء المخصص هذه السنة **للفرس في الفضاء العربي الإسلامي**. الموضوع الذي يتمحور حوله هذا اليوم الدراسي من المواضيع القيمة لكونه يضع الفرس داخل مجال حضاري أوسع لا يهم المغرب فحسب بل يعالج الموضوع من ناحية حضارية عربية وثقافية إسلامية. إن موضوع الفرس قد خصه الله تعالى في كتابه الكريم و كذلك السنة النبوية الشريفة بمكانة مميزة.

وسأتناول في هذه المداخلة المتواضعة جانبا يبرز أهمية الفرس والفارس عند العرب وبعض التأملات في مظاهر العشق و الأخلاق.

و هي مرحلة عرفت المرحلة الجاهلية بعطائها الأدبي و الفني و حظي الخيل فيها بموقع خاص في النظم الشعري و النثري. فكان كل ذكر لمبدأ حياة الجاهليين يقترن بذكر الخيل و ذلك لعدة أسباب منها استقرارهم في صحاري نائية يحتاج فيها المرء في كثير من الأحيان

(*)- ذ. مولاي سلامة العلوي : باحث من مدينة مراكش

إلى السرعة الخارقة لإدراك ما ند من نعمه التي فيها قوامه و لتلاحق ما أخذ منه سرقة قبل فوته و منها كذلك الانتفاع بها في الصيد. فالعربي لا حصون تحميه و تحمي أمواله و لا يستقر في مكان فكانت بذلك الخيل حصنه المنيع و درعه الحصين وقوته الضاربة. ومما زاد العربي حبا للخيل وتعلقا بها حياته التنقلية فهو يعيش في صحراء مترامية الأطراف يحتاج فيها إلى قطع مسافات طويلة ليستقر في مكان فيه مرعى و مورد ماء.

لذا فقد اهتم العرب بالخيل وعنوا بها عناية فائقة، وأولوها منزلة عالية لا تدانيها منزلة فقد ساووها بالأولاد و الأهل و آثروها عليهم و على أنفسهم. وللخيل عند العرب مكانة نفيسة نادرة. فالعربي عندما يخاطب الفرس كأنما يخاطب أعز أبنائه، و هو يتألم عندما تمرض فرسه، و يحزن حينما تهلك، و يفرح حينما تنتج، و يقيها في الحروب بجسمه، و يؤثرها في البرد الشديد بلحافه. إنه يفضلها على أولاده، و يجيعهم ليشبعها، و هذا منتهى الاعتزاز. و يبلغ اعتزاز العربي بفرسه مما أنه يضحي بأهله في سبيل فرسه و المحافظة عليها.
فهذا عنترة بن شداد العبسي يهدد امرأته و يعنفها أشد التعنيف فيقول:

لا تذكري مهري و ما أطعمته ... فيكون جلدك مثل جلد الأجـرب
إن الغبوق لـه و أنت مـسـوءة ... فتأوهي ما شئت تـم تحوبــي

ومن عظيم اهتمام العرب بخيلهم وحرصهم على المحافظة على نجابتها وأصالتها، أن عنوا بأنسابها عناية لا نظير لها فهم ينتخبون كل فحل نجيب وعندما يعتزون بذكر خيلهم ينسبونها إلى أصولها الرفيعة النادرة.

و من التكريم الإلهي لهذا الحيوان قوله عز من قائل: ﴿ و أعدوا لهم ما استطعتم من قوة و من رباط الخيل﴾. ولقد أعطى الإسلام للخيل مكانة عليا فهذا رسول الله صلى الله عليه و سلم قال:«عاتبني جبريل في الخيل». الروح الأمين ينزل يعاتب رسول الإسلام في الخيل، ألا يدلنا هذا على حقائق تكريمية إلهية استحقها هذا الحيوان؟ ويقول كذلك صلى الله عليه وسلم : «الخيل معقود في نواصيها الخير إلى يوم القيامة»، مما يثبت أبدية ارتباط الخيل بالخير في الدنيا.

ونستنتج مما أولاه الإسلام من عناية فائقة بالخيل واهتمام عظيم ورعاية لا مثيل لها وجود كثير من المزايا والأسرار الخلقية والمعنوية سواء كانت زيادة في الخلق أو تمييزا في

المؤهلات والصفات. يقول (صلى الله عليه و سلم) إكراما للخيل: «**أكرموا الخيل و لا تقلدوها الأوتار**»، فأمر بإجلال الخيل والمحافظة عليها

وأن لا تضايق في شئ. و يقول صلى الله عليه وسلم : «**أكرموا الخيل فإنها ارث أبيكم إسماعيل**». و هنا حض على إكرامها كذلك، وحينما يأمر الإسلام بإكرام الخيل فإنما يوجهنا نحو القيم والشيم العالية **التي تميزها** عن سائر المخلوقات وإلى الصفات التي يجب على الفارس التحلي بها فجعل الفرس والفارس متلازمين سبيلا إلى تحقيق السمو و التحلي بأجمل الشمائل.

الشيم العالية للفرس

ويتميز الفرس بالعديد من الشيم والخصائص، حيث قال علماء الحيوان إن الفرس أشبه الحيوان بالإنسان لما يوجد فيه من الكرم و شرف النفس و علو الهمة. فالفرس يتحلى بالصبر وهو خلق أصيل فيه كما أن الصبر من صفات فارسه أيضا. فالفرس منقاد لفارسه حيث يقتحم الصفوف ويكر و يفر و يقدم و يحجم ويساعد فارسه على إحراز النصر والظفر به وذلك بصبره على التعب و تحمله المشاق كصعوده الجبال وسلوكه الصحاري و هبوطه الأودية و عبوره الأنهار. و هنا يقول المتنبي و هو يمدح سيف الدولة الحمداني:

تدوس بك الخيل الوكور على الــذرا و قد كثرت حول الوكور المطاعم

فالفرس تمضي مع فارسها حيث يشاء ويطاول عليها الركوب ، يقول الشيخ زكرياء القزويني: إن هذا النوع هو أحسن البهائم صورة وأكثرها نفعا فقد اقتضت الحكمة الإلهية خلق هذا النوع من الحيوان وهيأت الإنسان إلى تذليله و تصريفه في نجاح مقاصده ليقوم له مقام الجناح من الطائر.و يزيد أنه أحسن الحيوانات شكلا بعد الإنسان و أرشق الدواب عدوا و ذكاء و له خصال حميدة و أخلاق مرضية و له صفاء اللون وحسن الصورة و تناسب الأعضاء و حسن طاعته للفارس كيف شاء صرفه و انقاد له، فمن صفاته الشجاعة الخارقة و الإقدام. وجاء في حياة الحيوان للدميري: (و من أخلاقه « أي الفرس» الزهو و الخيلاء و السرور بنفسه و المحبة لصاحبه). ومما يدل على شرف نفسه و كرمه أنه لا يأكل بقية علف غيره و يعرف صاحبه و لا يمكن غير فارسه من الركوب عليه. و أضاف القزويني أن من الخيل ما يستعمل في لعب الكرة و أنه يرقص على الموسيقى و يطرب لها. فالفرس من طبعه الزهو، يقول أبو حيان التوحيدي: (ذو الزهو ثلاثة: الفرس و الديك و الطاووس).

و من صفات الفرس ما يرفعه و يرقى به إلى أعظم منازل الكرم و الشرف و الغيرة على العرض، فالفرس لا تترك كسائر الخيل ترعى و لكن يقام عليها و تخدم، فالعربي يكرمها و هي تعوض نفقاتها بما تغنم من الأعداء. و من خلق الخيل كذلك أن منها من لا يبول و لا يروث ما دام راكبه عليه. فعلى سبيل المثال لا الحصر فرس يزيد بن مسلمة بن عبد الملك كان مؤدبا غاية الأدب فكان إذا نزل عنه و ألقى عنانه لا يبرح مكانه حتى يعود إليه فيقول:

عودته فيما أزور حبائبـــــــي إهماله و كـذاك كـل مخاطـر
و إذا أحتبى قربوسه بـعـنانـه علك الشكيم إلى انصراف الزائـر

الشيم العالية للفارس

وتلتقي شيم الفرس بقيم الفارس، حيث تميز الفرسان العرب بصفات عرفوا بها وتجلت معانيها فيهم ورسمت صور حياتهم و عبر عنها شعراؤهم و خطباؤهم و برزت فيها بطولاتهم.

فالفارس العربي يستهين بنفسه و بماله حيث يبذل نفسه رخيصة في سبيل الدفاع عن ذاته و عن قبيلته وهذا الأفوه الأودي يقول في قصيدته:

نحن قدنا الخيل حتى انقـطعت شـدن الإفـلاء عنها و المهـار
كـلـمـا سرنـــا تـركـنـا مـنـــزلا فيه شتى من سباع الأرض عـاروا

و يقول كذلك المتنبي:

و ما الخيل إلا كالصديق قليلة و إن كثرت في عين من لا يجـرب
الخيل و الليل و البيداء تعرفني و السيف و الرمح و القرطاس و القلم

كان الفارس يجهد جهده فيما يوطد عزمه في الحفاظ على قومه و لا يبرح ارض المعركة حتى تلبس الفرس نعالا من دماء العدو. كما يتصف الفارس العربي بالسماحة و الجود فكرم الطبع وسمو الخلق و عزة النفس و الإيثار و الصبر و الوفاء من صفات الفارس النبيل.
و قد عنى تاريخ العرب الشعري و القصصي بصفة الكرم عند العرب التي اتسع مداها و عبر الشعراء عنها اصدق تعبير. و الجود من صفات العرب التي ألبستهم لباس الشرف وكان أبرز صفاتهـــم فتنافسوا فيه. والفارس العربي يحمي جاراته ويعطف عليهن ويرعى الأرامل ويحفظ الجار و اليتيم.

إن الفارس العربي صبور خلوق يبرز قوة النفس و تماسكها أمام الأحداث الجسام.و الفارس العربي يقول ان النصر إنما يكون مع الصبر، و لذلك يتحمل المشاق و يكره نفسه على المضايق و على كل ما من شانه أن يخالف عادة النفس وهذا الصبر يجعله راشدا باكتمال العقل و حسن التصرف و التفكير في الخلاص مما أصابه.

يقول المهلبي:

و من يخشى اطراف المنايا فإننا لبسنا لهن السابغات من الصبر

و هذا الصبر يجعل الفارس قادرا على احتمال الجوع و العطش لأنه قد ينفد ماؤه أو يتأخر غذاؤه، فالبعد عن الصبر منقصة يعير بها الفارس.

إن الفارس العربي لا يهتم بما يلاقيه من عنف و جهاد فيستجيب للداعي و يبادر إلى إنقاذه ويتعجل الأخذ بيده و إبعاد ما يفزعه .كما أن الفارس العربي يتصف بالعفة بكل جوانبها المشرقة ،وهي صفة نفسية تجعل الإنسان قانعا بما رزق من مال و زوجة فهي عفة في الغنائم و تجاف عن الأثرة أو اختصاص نفسه بشئ ليس من حقه و هذا عنترة العبسي يفخر بتلك الصفة البطولية:

هلا سألت الخيل يا ابنة مالـــك إن كنت جاهلة بما لم تعلمـي
يخبرك من شهد الوقيعة انـــي أغشى الوغى و أعف عند المغنم

وعنترة فارس الفوارس يغض طرفه عن جارته إذا بدت له لأنه مستقيم الخلق فيقول:

وأغض طرفي ما بدت لي جارتي حتى يـواري جـارتـي مأواهـا

فالفارس كما يغض طرفه عن جارته ويحفظ عرضها يدافع عنها و يحميها. كما أن الفارس العربي يلبي طلب الحلم و يحرص عليه صفة نفيسة تدل على سعة الصدر و ضبط النفس و تدل على قوة القلب و رباطة الجأش فلا يأبه لعوارض الأمور و لا تخرجه عن طوره و لا تنفلت منه الكلمات المشحونة بالغضب، فالفارس إذا غضب يجعل ذلك مصيبة أصابته و الحلم المطلوب للفارس هو الحلم الذي يبقى على عزته و لا يهدر من كرامته و ليس هو الحلم الذي يجبن فيه أمام الخطوب والفارس الحر حليم قادر يملك زمام المواقف لا حليم هو أقرب إلى الجبن و لا يوقعه الحلم في الذل.

و صدق المتنبي حيث قال :

إني أصاحب حلمي و هو بي كرم و لا أصاحب حلمي و هو بي جبن

حقا، إن الفارس العربي محتاج إلى الحلم في موطنه و إلى الشدة و الأخذ بأسباب القوة في موطنها، والحلم معدود من صفات النبل والشرف و السؤدد. قيل لمعاوية: ما المروءة ؟ فقال: احتمال الجريرة و إصلاح أمر العشيرة، فقيل له و ما النبل ؟ فقال: الحلم عند الغضب و العفو عند المقدرة.

إن الفارس العربي وفي، ولا شك أن هذا الخلق يتحلى به أيما تحلي و يفخر انه مارسه وضمن ووفى لأصحاب الحقوق. فالفارس وفي لجنده إن كان قائدا أو لمعركته إن كان مجاهدا ولجيرانه إن كان مجاهدا و لحلفائه ان كان حليفا، و ما دام قويا يملك زمام أمره يكون ذا شخصية يتجافى عن الغدر و الخيانة و يأبي نقض العهود و يأنف الإخلال بالمواثيق و يفي مادام الآخر و فيا. يقوم على رعاية العهد و الميثاق. كذلك ينبغي أن يحرص على الوفاء لكل من مد إليه يدا و حينها يكون مبعث ثقة به.

إضافة، فان الفارس ينتهز الفرصة و يقتنص الوقت المناسب لمفاجئة عدوه و التعجيل بأخذه بقوة و قد يكون بعيدا عن فرسه و هو حينئذ لا يفاجئ عدوه إلا بالعدو.

كما أن الفارس العربي ذو قلب ذكي جسور يقطع الفيافي، و يحمل سيفه أو رمحه و يخترق الصحراء و لا يبالي ما يصادفه و الفارس العربي المسلم ثقف فطن يتعلم من تجارب غيره و يحول كلامه إلى واقع مشاهد. و عمل ملموس يستلهم الصمود و الثبات فهو يأنس لقبيلته و لا تغويه الحكمة بل يستخلصها من تجاربه ومن ممارسته في الحياة، وما أكثر الحكمة عند العرب و هي حكمة لها تأثيرها و انطباعها في نفسه. و الفارس تمثل هذه الحكم و استفاد منها في حياته الزاخرة بالمعاني و يختار من الحكم ما يناسب الأحوال.

فالفارس يجافي الغرور، وقد ذكر أبو حيان التوحيدي بعض صفات الفارس قائلا: «وعلى الفارس أن يزن نفسه بما هي عليه من طاقات ولا يغالي في تقدير نفسه أو الحط من شأن عدوه» .

فالفارس الحق هو الذي يلبس لكل حالة لبوسها. فهو بهذه الشيم العالية سيد في قومه، نفذ الكلمة فيهم وهي تجعل من الفارس قيمة حضارية في وقتنا الحاضر نستشف من خلالها سبل مكارم الأخلاق فيما بيننا أو مع الآخر. لقد كرم العرب الخيل في الجاهلية و في الإسلام لما لها من فضل عظيم وعز و جمال. فقد تمثل فرسان المسلمين صفات آبائهم في الجاهلية بروح جديدة و مواقف الفارس في الإسلام أجلى من أن تحصى. فعندما أمر الإسلام بتكريم الخيل فإنما أراد أن يثير انتباهنا إلى ما خص الله سبحانه و تعالى بها من خصائص خلقية و خلقية، يفضلها عن سائر مخلوقات نوعها لتلازم القيم و الشيم العالية التي يجب أن يتمتع بها الفارس. فجعل الفرس والفارس أعظم صورة في سبيل السمو وتحقيق القيم العالية.

يقول المتنبي:

و ما تنفع الخيل الكرام و لا القنا إذا لم يكن فوق الكرام كرام

وفي الأخير أريد أن أجدد لحضراتكم الشكر الجزيل و الثناء العاطر الجميل لجميع الشركاء و المنسقين و المتدخلين المحاضرين في هذا اليوم الدراسي الرصين، كما أحيي و أشكر باسمكم السادة أعضاء اللجنة العلمية و الثقافية و التنظيمية و على رأسهم سمو الأمير الشريف مولاي عبد الله الذي شرف هذا الحدث برئاسته الشرفية على ما بدلوه من تضحيات ومجهود من أجل التحضير والإعداد لهذا اللقاء العلمي المتميز، سيرا على التوجيهات الملكية السامية لصاحب الجلالة مولانا الملك دام له النصر و التمكين.

ولع و اعتزاز